العتبة العلوية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

(١٢٩)

نهل الحضارة في نهج البلاغة

تأليف

السيد عبدالمطلب رضا الموسوي

شعبة الإصدارات والمطبوعات

(١١)

نهل الحضارة في نهج البلاغة

□ المؤلف: ..... السيد عبدالمطلب رضا الموسوي

□ الناشر: ..... العتبة العلوية المقدسة / قسم الشؤون الفكرية والثقافية / شعبة الإصدارات والمطبوعات

□ الإخراج الفني: ..... نصير شكر

□ الطبعة: ..... الأُولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م ـ النجف الأشرف

مقدمة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويُكافئ مزيده ويمتري العظيم من فضله ونداه وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين مصابيح الدجى ومنار الهدى لاسيما بقية الله في الأرضين مولانا قطب دائرة الإمكان صاحب العصر والزمان أروحنا لتراب مقدمه الفداء.

وبعد..

ففي الوقت الذي يزف فيه قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدسة هذا الإصدار بحلته هذه الى القرّاء الكرام بالتزامن مع الذكرى القرنية الرابعة عشرة لاتخاذ أميرالمؤمنين عليه السلام الكوفة عاصمة لحكومته الإلهية، فإننا نمد كف الضراعة إلى المولى تعالى سائلين إياه أن يسدّد يراع زملائنا في شعبة الإصدارات و المطبوعات لتقديم كل ما هو رائع ونافع لخدمة شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله فإنه ما إن انقشعت غيوم الطغيان والدكتاتورية البغيضة عن سماء عراق أهل البيت عليهم السلام

حتى نهدت العتبات المقدسة بقياداتها وإدارتها الجديدة بمهمة النهوض بالمستوى الفكري والثقافي لأبناء الإسلام العظيم مضطلعة بحمل هذا العبء عن طريق نشر وتحقيق المؤلفات التي تصب في خدمة الإنسان والإنسانية بكل بعد من أبعادها.

ودعاؤنا موصول إلى سماحة السيد المؤلّف بأن لا يجفّ قلمه للذود عن حياض الإسلام المحمدي الأصيل.

وقد حرص قسم الشؤون الفكرية والثقافية على نشر كل ما يخص مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من خلال إصداراته المختلفة والمتنوعة خدمة لطلاب العلم والمعرفة، ونشراً للثقافة الإسلامية الأصيلة.

ومن الله نستمدّ العون وهو حسبنا ونعم الوكيل متوسلين بباب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله أن تكون هذه الجهود في ميزان حسناتنا، والله من وراء القصد.

الشيخ علي خضر الشكري

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٣٦هـ

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة شعبة الإصدارات والمطبوعات

الحمد لله الأول قبل الإنشاء والإحياء، والآخر بعد فناء الأشياء، وصلّى الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله الذي أرسله بالهدى ونور الحق وعلى أهل بيته الهداة الميامين، وبعد..

تتصاغر الكلمات وتتضاءل العبارات عند الحديث عن رجل يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كنفس الرسول بنص الكتاب المجيد.. فتذهب حينها روعة البيان.. وسحر الكلام حين يخوض المرء في هذا البحر اللجي.. الذي لو كانت البحار مداداً والأشجار أقلاماً لما استطاعت عدّ فضائله التي حباه الله تعالى بها.

ومن هذا المنطلق تسعى شعبة الإصدارات والمطبوعات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدسة إلى نشر فكر وتراث الإمام

أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للقـرّاء الكـرام؛ لينهلـوا مـن هـذا المعـين العذب فكراً وثقافة إسلامية صحيحة بعيـدة عـن التعـصّب أو الغلـو؛ لأنّهـا تنطلق من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ومنه تعالى نستمدّ العـون والتوفيق، والله من وراء القصد..

شعبة الإصدارات والمطبوعات

١٢ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ ـ ٢/ ٢/ ٢٠١٥م

***

المقدمة

كيف عرفتك ياعلي؟

ولدتني أمي تلهج باسمك...وتربيت وترعرعت على حبك...

وعندما صرت اتعرف على الاشياء رحت ابحث عنك..

جئت إلى مرقد جسدك الطاهر فرأيت قبة ومنارة وذهباً وفضة...

استمعت إلى المنابر فتعرفت عليك منها انك بطل الحرب وراهب المحراب...

نظرت إلى النفس والآفاق، وسبرت على قدري اغوار الكون، فناديت من اعماقي ...

ان لهذا الوجود خالقاً عظيماً وحكيماً، وان لهذا الوجود هدفاً كبيراً... ولابد للبشرية من دليل يقودها نحو هذا الهدف ...

قرأت آيات التدوين بعد آيات التكوين فعرفت محمداً مبعوثاً جاءَ ليربط الارض بالسماء... وعرفت ان نور محمدٍ يجب ان يبقى ليقود بقية الاجيال والقرون...

نظرت بعقلي وبقلبي فرأيتك ياعلي تحمل نور محمد بشخصك وبنهجك

لتقود قافلة البشرية نحو سماء الإنسانية...

وعندما رحت اقتبس من نورك ونهجك العلوي، صرت استكشف مجاهل نفسي وآفاقي المحيطة بي فاكتشفت صغري امام عظمتك ...

واذا بك ذلك الوجود الذي لايحدد معالمه الحرب والمحراب، بل انك الكمال الإنساني في جميع جوانبه...

وان الله سبحانه قد اظهر فيك صفاته بكل مايمكن ان تظهر في مخلوق...

وعرفت انّ من زارك قبةً ومنارةً لم يزرك ... بل انت قمة ومنار ... قمة لايرقى اليها طيرالافكار وينحدر عنها سيل الكلمات...

ومنار يخترق حواجز الزمان والمكان ...

ولذلك فإن زائرك العارف بحقك لايقبل من ضريحك ذهباً وفضة ...

وانما يعرض نفسه على نورك المتدفق من كانون ضريحك ليستخرج جوهرة الإنسانية الكامنة في باطنه... ويستمطر شآبيب توحيدك وعبوديتك ليغسل بها قلبه من ادران الاغيار... ولقد وقفت على شطئان معينك لارتشف من عين الحياة فكان نصيبي منها طلاًّ ونفحات... فأحببت ان اهديها إلى القلوب الضامئة ...

وقد افرغتها في سطور هذه الرسالة...

وإذا كانت أوعية كلماتي التي استقيت بها ضيقة لقصور أو تقصير، وهو الحق، فان الذي جرأني على تقديم بضاعتي المزجاة هو علمي بإن المولى الغفور الرحيم يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، وكذلك وليّهُ ووصي نبيه وأحباؤه القراء الكرام ...

المؤلف

الولاية صراط التوحيد
بين الكعبة والمحراب

لماذا ولد علي في الكعبة ؟

سؤال نطرحه لأجل كشف الحقيقة ولأنّ العلم بالحقائق كنز مفتاحه السؤال... لاسيما واننا نعلم بأنّ هذا الكون بجميع مقدراته وحوادثه لا يدار بالعشوائية وإنّما تديره يد العليم الحكيم واللطيف الخبير...

فما من شيء ينزل من الخزائن العليا إلى الأرض إلا من بعد أن يصاغ بيد الحكمة ويوضع في قالب القدر المعلوم... ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾ (سورة الحجر: ٢١).

سؤالنا يشبه إلى حدٍّ كبير سؤال الملائكة من الله عندما أخبرهم بأنّه ﴿**جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، قالوا: أتجعل فيها الإنسان ولا تجعلنا ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك؟ أتهب وسام الخلافة لمن يحمل في داخله الغضب والشهوة ونحن عبادك المطيعون الذين لا شغل لنا سوى التسبيح والتحميد...

لم يعترض الملائكة على الله بهذا السؤال، وإنّما أرادوا أن يكتشفوا سرّ هذا

القدر العجيب... والله سبحانه قد استوى على العرش بالعلم والمعرفة ولذلك فقد منحهم هذا الحق، ولم يجابهوا بالرد وأوقفهم على مقام خليفة الله وما لديه من الأسماء التي لا يمكنهم الإحاطة بها إلا في حدود النبأ والمعرفة الكلية...

وبعد أن حصل لهم النبأ بالأسماء وتقشعت عنهم سحابة الإبهام وعرفوا سر الجعل الإلهي... عادوا إلى التسبيح والتحميد بدرجة أعلى من الوعي والمعرفة فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم.

فإذا كان لله سبحانه يفتح باب السؤال والاستفهام لعباده المكرمين المطيعين ليزدادوا علماً ومعرفةً فلا شك بأنه يرضى للإنسان الذي خلقه لأجل المعرفة أن يسأل عن السر في اختصاص علي عليه السلام بالولادة في جوف الكعبة.

لماذا تذهب فاطمة بنت أسد عندما جاءها المخاض بعلي وتخرج من بيتها وتقف أمام الكعبة تناجي ربها فيفتح لها باب البيت فتلج في داخل الكعبة وتلد علياً فيها؟!

لماذا لم يولد الأنبياء من قبل في هذا المكان المقدس؟ لماذا لم يولد رسول الله خاتم الأنبياء وهو خير من علي بل هو نبيه وسيده وإمامه؟

لماذا تدخل أم علي عند مخاضها في قلب الكعبة وتخرج مريم الصديقة من بيت من بيوت الله وتتخذ مكاناً قصياً عندما جاءها المخاض بعيسى روح الله..؟

ألم تكن مريم الطاهرة أحوج من فاطمة بنت أسد إلى أن يضمها بيت المقدس بين حناياه ويغلق عليها أبوابه بنحو إعجازي كي يخلصها من حراجة موقف تمنت الموت بسببه؟

ليس لهذا السؤال جواب مباشر وواضح كالذي حصل للملائكة...

وأنبأهم آدم بالأسماء.

ولكننا يمكن أن نقرأ الجواب بين سطور الأيام التي كشفت لنا أسرار هذا الحدث العظيم... فعليٌّ الذي ولد في قلب الكعبة رمز التوحيد في الأرض، هو الذي قُدِّر له أن يحطّم بيده الأصنام التي كانت موضوعة على الكعبة، وهو الذي بسيفه الإلهي أطلق الكعبة من أسر الشرك والنفاق عندما قتل أبطالهم واقتلع حصونهم وناوش ذؤبانهم...

وهو الذي وهبت له السماء وسام الولاية التي بها اكتمل الدين وتمت نعمة الإيمان والتوحيد.. وعندما تأخّر الرسول في إبلاغ أمر الولاية إلى الأُمّة نزل الوحي قائلاً: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبِّك وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُك مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧)، أي إنك يا رسول الله يوشك أن تدعى فتجيب والرسالة قد اجتازت مرحلة التبليغ والتأسيس، ولابدّ للرسالة من بعدك من يواصل سيرها، لابدّ لها من صاحب يرى ما ترى ويسمع ما تسمع، ولكنه ليس بنبي؛ لأن النبوة قد خُتمت بك أمّا رسالتك فباقية ما بقيت الدنيا وبقيت البشرية.

لقد كنت يا رسول مبلغاً للوحي وتالياً للكتاب ومبيناً للآيات ومزكياً للأمة وقدوة وأسوة وقائداً لها.

وبرحيلك سوف ينقطع الوحي والنبوة... ولكن هل يمكن أن ينقطع تعليم الكتاب وتزكية الأُمّة ويختفي من الساحة من هو القائد والقدوة والأسوة؟ وهل تفتقد الأُمّة المفسر الحقيقي والمبين لمقاصد الكتاب والمطبق لها على وقائع الحياة المستمرة والمتجددة؟ إذا سوف تضيع الأُمّة وتكون نهباً للآراء والأهواء والتفاسير والتأويلات!

فلابد من بعدك من ممن يحفظ الرسالة في الأُمّة ويقود الأُمّة ويهديها على خط الرسالة وهو الولي ومن له الولاية. وينبغي أن يكون صاحب هذا المقام أقرب الناس إلى الوحي والرسول والرسالة في العلم والعمل في اللسان والقلب والروح.

إن الرسالة في زمن الرسول لا تحتاج إلى تشخيص لأن الرسالة متحدة بالرسول وشخص الرسول هو اتجاهها ولكنها بعد الرسول تحتاج إلى امتداد الرسول الذي يحدد اتجاه الرسالة وإلا وقعت الأُمّة في التيه والإبهام، والذي يملك مؤهلات البيان والتطبيق والتشخيص هو الولي ولا يمكن أن يكون الولي إلا الذي مع الحق والحق معه يدور معه حيث دار فإذا فقدت الولاية فقدت الرسالة لأن الرسالة بلا تشخيص لطريق الحق في دنيا الصراع والتشابك تفقد رساليتها بل تتحول إلى رسالات متناقضة ومتنازعة باسم الرسالة ولذلك قال ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

فالتوحيد والرسالة بلا ولاية يؤول أمره إلى الشرك والتعدد والتمزق وقد بدأت إرهاصات ذلك في مرض الرسول، فإن الذين قالوا: «حسبنا كتاب الله»، ومنعوا الرسول من أن يكتب كتاب التشخيص والتحديد والوصفة الطبية لعلاج الاختلاف والضياع إنّما قرعوا في ذلك اليوم طبول حرب التأويل، وهم الذين زرعوا بذرة أثمرت الجمل وصفين والنهروان وبالتالي كربلاء...!

وإذا بأمة التوحيد وأمة حبل الله الواحد التي أُريد لها أن تكون أعلى وخير أُمّة أُخرجت للناس تتحوّل إلى أُمّة متقاتلة فيما بينها وباسم الرسول والرسالة والقرآن!!

وعندما ضيّعت الأُمّة بوصلة التوحيد والرسالة وهي الولاية ضاعت وضلت عن التوحيد والرسالة حتى وصل الأمر بها أنها أصبحت تقاتل التوحيد والرسالة والقرآن الناطق والحق والعدل المتحرك على الأرض باسم القرآن والحق والرسول والرسالة!!

إن الرسول أكد وأراد أن يؤكد للأمة مرة أخرى في كتابه الذي منع عن كتابته أراد أن يقول: إن التوحيد عقيدة في القلوب والقرآن كلمات وحروف مدونة على الصفاح والأوراق. ولكن الذي يحول التوحيد من القلوب إلى الجوارح وينقل القرآن من التدوين إلى التشخيص والتطبيق ويجعله شريعة تربط الأرض بالسماء وتوجه الأُمّة للحركة نحو الكمال المطلق الإلهي، هو الولاية ولذلك جاء في الحديث: «وما نودي بشيء كما نودي بالولاية»[1].

فلا توحيد بلا ولاية كما لا ولاية بلا توحيد فالتوحيد في التعريف المنطقي للإسلام هو الجنس والفصل هو الولاية وفي التعريف الفلسفي التوحيد هو المادة والصورة هي الولاية.

والأوضح من ذلك كله تعريف الهادي والمعلم والحبيب صلى الله عليه وآله عندما قال بعدما شيد صرح التوحيد وبلغ نداء الوحي وأوضح معالم الرسالة حين قال: (أنا مدينة علم) القرآن والتوحيد والرسالة (وعليٌّ بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها)[2] فولاية علي هي الباب إلى التوحيد والرسالة في العلم والعمل.

«**من أراد الله بدأ بكم ومن وحده قبل عنكم**»، فالمنهج العلوي هو منهج

---

(١) الكافي، الكليني ج٢ ص١٨ .

(٢) الاحتجاج الطبرسي ج١ ص١٠٣.

التوحيد وهو الصراط المستقيم.

فلا غرابة أن ترسم يد القدر الإلهي حياة علي بين الكعبة والمحراب، بين مقر التوحيد ورمزه على الأرض ومركز وعاصمة الولاية وهو محراب الكوفة حيث أن حياة علي مثلت الصراط المستقيم بين التوحيد والولاية.

وبذلك ينكشف لنا سر القدر بأن يفتح علي عينيه وجبهته على قلب أرض الكعبة ويغمض عينيه وجبهته مخضبة بالدماء على أرض محراب الولاية في الكوفة...

لتنتهي هناك حياة كلّها إخلاص وجهاد من أجل مبادئ التوحيد والحق والعدل والرسول والرسالة، وهناك يعود الختم إلى البدء وتتصل الولاية بالتوحيد والمحراب بالكعبة فيصيح عليه السلام:

«فزت ورب الكعبة... فزت ورب الكعبة..».

المسؤولية الواعية قوام الحضارة

من أين تنشأ الحضارة ؟

سؤال مصيري إذا ماوعته الامم واجابت عن بالصحيح بعقليها النظري والعملي اصبحت ذات حضارة.

وقد أجاب (ويل ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) فقال: «انّ الحضارة تتألف من عناصر أربع هي: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون»[1].

ولكن هذا الجواب أخذ المسبب مكان السبب، والنتائج محل العوامل، ولعلّه قصد الاركان التي تتألف منها الحضارة لا عوامل نشوئها، وعبارته التالية توضح هذا المعنى حيث يقول: «ان الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنّه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والإنشاء»[2].

---

(١) ويل ديو رانت : قصة الحضارة ج١ ص٣ دار الفكر بيروت .

(٢) نفس المصدر .

وهذا الكلام وإن كان صائباً في تشخيصه لعوامل نشوء الحضارة، إلّا أنّه يبقى السؤال قائماً مالم يتضح للقارئ كيف ينتهي الاضطراب والقلق ؟ ومتى يأمن الإنسان من الخوف؟

ولذلك فإنّ ديورانت لم يقدّم جواباً شافياً ووافياً له لهذا السؤال ، وإنّما راح يتحدّث بإسهاب عن العوامل الجيولوجية والجغرافية والاقتصادية لنشوء الحضارة.

ولا يخفى على أهل التحقيق ان الكلام عن هذه العوامل على فرض التسليم بها كلام عن الشرائط والمعدات اللازمة للحضارة وهو غير الكلام عن العلل والاسباب... ويمكن ان يقصد بكلامه هذا ـ إن كان ذا طابع فلسفي تحليلي ـ انّ الفكر والادراك الذي هو أساس التطوروالتغيير ما هو إلّا نتاج الطبيعة وظاهرة من ظواهرها، وانه يتحرك وينمو طبقاً لقوانين الديالكتيك والمادية التاريخية التي يؤمن بها الفكر المادي الماركسي[1].

وهذا الفكر ينتزع من الإنسان دوره الحقيقي في قيادة حركة التاريخ وبناء الحضارة ويعتبره تابعا لحركة طبيعية خارجة عن ارادته وهو التناقض الدائم لموجود في الاشياء أو لعامل الاقتصادي أو وسائل الانتاج، ولو تخلف الإنسان عن مواكبة هذه الحركة المزعومة فإنّه يجبر على ذلك بالنار والحديد لأنّه رجعي ومستبد ومخالف للتقدّم والتطور كما فعلت الدول الشيوعية بمعارضيها، أو يرغم على قبول الديمقراطية الغربية أو مايسمى بالعولمة وميثاق حقوق الإنسان بالصواريخ والقنابل! كما فعلته وتفعله أمريكا والدول الغربية اليوم مع

(١) انظر فلسفتنا سيد الشهيد محمد باقر الصدر ص ٢٤٥-٢٤٧ دار الكتاب الإسلامي قم .

الشعوب المخالفة لها.

وهذا يشبه كثيراً التفسير الأموي العباسي لحركة التاريخ بالقضاء والقدر والجبر، الذي جعل من طغاة بني أمية خلفاء في أرضه والحجاج بن يوسف أميراً للمؤمنين! والمعترضين على ظلمهم خارجين على إمام زمانهم ويستحقّون القتل والسبي!!

ومن هنا ندرك عظمة الإسلام الأصيل بما قدّمه للبشرية من منهج معرفي يقودها نحو إنشاء الحضارة الإنسانية.

فهو يعرف الإنسان بان خالق هذا الكون قد جعل كلّ المخلوقات لخدمة الإنسان كي يكون خليفته في إدارة هذا الوجود، فمفاتيح الخير والشرّ والخوف والأمن والتغيير والإصلاح كلّها بيد الإنسان وما عليه إلّا أن يقرأ وينظر أو يفكر ويتدبر فيتعرف على نفسه وما يدور حوله كي تظهر له ملامح الطريق فيتحرك نحو بناء الحضارة الإنسانية وتحقيق السعادة الكاملة الدائمة التي توازن بين الروح والبدن والفرد والمجتمع والدنيا والآخرة، ولعلّ من أوضح الآيات التي ربطت مصير الإنسان بنفسه وجعلت مفتاح سعادته وشقاءه بيده، قوله تعالى ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الانفال: ٥٧).

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ (الرعد: ١١)، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ (الشورى: ٣٠)، وقوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١).

وأمّا الآيات التي جعلت معرفة الآيات التكوينية والتشريعية منوط بالتعقل والتفكر والتدبّر وكذلك الآيات الداعية إلى العمل الدؤوب والتقوى والجد والاجتهاد والاتقان والاصلاح وإقامة العدل والقسط والوقوف بوجه الظلم والطاغوت بكلّ أنواعه وأشكاله فهي تتجاوز الآلاف، بل يمكن القول بأنّ كلّ القرآن الكريم مسوق لهذا الغرض .

وبعبارة موجزة فإنّ القرآن الكريم يعرف الإنسان بأنّه المخلوق المفكر المختار الذي يصنع مصيرة باختياره بالعلم والعمل.

وعندما تحكم على ذهنية الإنسان ثقافة المسؤولية ويتخلص من الشعور بانه قشه في بحر هذا الوجود تتقاذفه امواج القضاء والقدر والحظ والعشوائية والصدفة، فحينها سوف يتخلص من شبح الخوف المذموم ويحطم أغلال اليأس والاحباط وتنمو في نفسه عوامل الإبداع والإنشاء.

وهذا الإسلام الذي يتدفّق بالحركة والشعور بالقيم الإنسانية العالية هو الإسلام الذي يؤخذ من المنهج العلوي في تفسير القرآن والحياة.

ولو نظرنا إلى نهج البلاغة، والذي يمكن ان نطلق عليه بانه تفسير عملي للقران الكريم فإنّنا نرى انه يريد تربية امة القرآن على ثقافة المسؤولية الواعية، فلا تكاد تمر بفقرة من حلقات هذا السفر النوري الا وترى توصية وتأكيدا على التقوى .

وليست هذه التقوى التي يوصي بها أميرالمؤمنين بمعنى الانزواء واعتزال الناس والحياة، بل هي مسؤولية اصلاح الدنيا والاخرة (ان المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الاخرة)[1] .

---

(١) نهج البلاغة كتاب ٢٧.

ولقد أوضح المراد المقصود من التقوى فعبر عنها تارةً بأنّها قلعة وحصن للكرامة «واعلموا عباد الله ان التقوى دار حصن عزيز» [1].

وأُخرى بأنّها مفتاح لحلّ جميع المعضلات وخارطة الطريق لبلوغ الأهداف في جميع ميادين الحياة «وان تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد، وعتق من كلّ ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب وينجو الهارب وتنال الرغائب»[2].

وأُخرى بأنّها السبيل نحو انتشال الأُمّة من الواقع المتخلف بجميع أشكاله «فمن أخذ بالتقوى غربت عنه الشدائد بعد دنوّها، واحلولت له الأُمور بعد مرارتها وانفرجت عنه الامواج بعد تراكمها، واسهلت له الصعاب بعد انصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها»[3].

ويتّضح لنا بنحو جلي انّ التقوى التي كان يصدح بها أميرالمؤمنين على منبره في كلّ يوم وأوصى بها أتباعه وأحبابه ما هي إلا ثقافة المسؤولية عن تحديد المصير ونبذ اللاإدرية في مجال العلم والبحث واللابالية في العزم والعمل.

وعندما نقرأ خطبته في استنهاض الناس للجهاد ومواجه الجيش الاموي الغاشم الذي قام بغزو الانبار حيث يقول: «أمّا بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة فتحه الله لخاصة اولياءه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجُنّة الوثيقة

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٥٧.

(٢) نهج البلاغة خطبة ٢٣٠.

(٣) نهج البلاغة خطبة ١٩٨ .

فمن تركه رغبة عنه البسه الله ثوب الذل وشمله البلاء وديث الصغار والقماءة وضرب على قلبه بالاسهاب وأديل الحقّ عنه بتضييع الجهاد وسيم الخسف ومنع النصف»[1].

فلباس التقوى الذي عبر عنه القرآن بانه يواري سوأة البشرية يصفه هنا علي عليه السلام ـ وهو القرآن الناطق المتحرك ـ بأنّه الجهاد والاستعداد للمقاومة والتضحية .

أي انّ الأُمّة التي تخلع حلة الجهاد فانها سوف تضطر ان تلبس ثوب الذل والهوان والتخلف.

إنّ علياً قطب رحى الحق وميزان الاعمال ولذلك فان كلماته معادلات تاريخية تكشف لنا كيف يتحرك التاريخ تتغير احوال الامم .

فهو عندما يقول: «لايمنع الضيم الذليل ولايدرك الحق إلّا بالجدّ»[2].

وعندما يقول: «غلب والله المتخاذلون»[3].

وعندما يقول: «فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنّت عليكم الغارات وملكت عليكم الاوطان»[4]، فإنّه يريد يبين هذه الحقيقة الهامة التي لو أدركتها الأُمّة الإسلامية اليوم ـ ولاسيما الأُمّة التي ترفع شعار محبة أهل البيت وولاية علي ـ وصنعت منها ثقافة علوية لكانت بحقّ هي الأُمّة الأعلى في العالم، وهذه الحقيقة

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٢٧ .

(٢) نهج البلاغة خطبة ٢٩.

(٣) نهج البلاغة خطبة ٣٤.

(٤) نهج البلاغة خطبة ٢٧.

هي انّ الأُمّة التي تتحكّم في اذهانها ثقافة الكسل والهروب عن المسؤولية وصناعة الاعذار والتواكل والتخاذل والاعتماد على الاخرين والتمسك بالخطابات والشعارات الفارغة التي يفهم منها التنصل من العمل والتضحية والعطاء والاكتفاء بالشعائر والمظاهر، هذه الأُمّة تكون هزيلة منهزمة في اقتصادها وسياستها واجتماعها وعلمها وسوف تكون في جميع ميادين حياتها غرضا يرمى واكلة للامم وصيدا سهلاً للطامعين حتى وان كان بين ظهورها قائد كعلي بن أبي طالب عليه السلام بجسمه وروحه، فكيف إذا لم يكن علي حاضرا بينها إلّا في حدود الانتماء الرمزي والعرفي والشعائر الخاوية .

ان الأُمّة المتخاذلة التي تبحث عن الحجج والاعذار وتتسمك بالتشابهات والخرافات كي تمني وتعلل نفسها بجنة بغير عمل وحياة كريمة دون سعي وجد وعزة بغير تضحية وعطاء.

مثل هذه الأُمّة لايشفع لواقعها المنحط ان تقاد بأعظم قائد عرفه التاريخ بعد الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ، بل إنّ أدائها السيّئ سوف ينعكس سلباً حتى على هذا القائد العظيم في نظر المتربصين بها وبه.

أُنظر ماذا يقول أميرالمؤمنين عليه السلام : «قاتلكم الله لقد ملئتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيضاً وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش: انّ ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لاعلم له بالحرب لله أبوهم، وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني، قد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا ذا قد ذرّفت على الستين ولكن لا رأي لمن لايطاع»[1].

(١) نهج البلاغة خطبة ٢٧.

أي انّ القائد الفذ لايؤثر إذا كانت القاعدة لا تعي مسؤوليتها، وانّ القائد مهما كان عظيماً فإنّه لايستطيع تغيير الأُمّة التي لاتتحرك لتغيير نفسها، وحركة الأُمّة فرع شعورها بالمسؤولية عن تغيير نفسها بنفسها وهذا هو مفتاح الحضارة الإنسانية.

ولذلك فإنّ الأُمّة إذا أُريد لها ان تستعيد بناء حضارتها فعليها أن تؤسس للك ببناء الثقافة العلوية ثقافة التقوى أي ثقافة الشعور بمسؤولية الفرد والمجتمع الروح والبدن ثقافة الاصلاح والاعمار في جميع ميادين الحياة ،ثقافة بناء الاخرة الذي يمر عبر بناء الدنيا، الثقافة العلوية تجعل الإنسان مسؤولاً عن تغيير نفسه بنفسه بل هو مسؤول عن العباد والبلاد «اتقوا الله في عباده وبلاده واعلموا أنّكم مسؤولون عن البقاع والبهائم»[1] أي: هو مسؤول حتّى عن إصلاح الأرض وحماية البيئة والمحافظة على الأشجار ومكافحة التصحر ونظافة البقاع والماء والهواء.

الإنسان في نهج البلاغة مسؤول عن اصلاح كل شيء وهو محاسب عن كلّ شيء «وانّ الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرة والمستورة»[2] اي انّ الإنسان مسؤول عن دقائق أعماله وجزئيات سلوكه فعليه أن يفكر ويتدبّر في عاقبة كلّ شيء قبل أن يفعله وينظر في تأثير عمله على العباد والبلاد والبقاع والبهائم .

(١) نهج البلاغة خطبة ١٦٧.

(٢) نهج البلاغة كتاب ٣٧.

أول الدين معرفته

المعرفة أساس الحضارة لأن المعرفة تصنع ثقافة الأُمّة ودرجة التحضر في كل أمة تتبع نوع الثقافة التي تحكم أفرادها والمعرفة هي الرؤية للكون والإنسان والحياة وهناك رؤيتان كونيتان رئيسيتان تحكمان البشرية.

رؤيا كونية مادية تقول: ﴿**مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكنَا إِلا الدَّهْرُ**﴾ (الجاثية: ٢٤)، فما الإنسان إلا معدة وغريزة وما الحياة إلا التمتع بهذه الأيام المعدودة... والفائز والرابح هو الأكثر تمتعاً.

ورؤية كونيه إلهية تقول إنّ الإنسان جسم وروح وحقيقته في روحه ونفسه الإنسانية المؤلفة من الروح والجسم... وحياته لا تختزل في هذه الأيام القصيرة وما هذه الأيام الا مقدمة لحياة البقاء والخلود.

وهذه الرؤيا الكونية تربط الكون والإنسان بخالقهما وهو الله سبحانه وتعالى وترى ان سعادة الإنسان وصلاح الكون يتحقق في ظل هذا الارتباط.

وقد جربت البشرية الرؤيا الكونية المادية المنفصلة عن الله وها هي تعاني من أنواع الويلات والظلم والحرمان وقد وصلت إلى طريق مسدود.

إنّ البشرية اليوم تبحث عن الحضارة الإنسانية المرتبطة بالله إنها تريد حياة تحطم جدران المادة وتحلق أعلى من الشهوات المادية المحدودة وتخترق حاجز الموت المرعب وتذره قاعاً صفصفاً كي تحوله في رؤيتها من جدار نهاية مرعب إلى بوابة جميلة نحو البقاء والخلود ولكن الأساس في عودة عالم اليوم إلى الله هو معرفة الله... إذ كيف يربط حياته بالله وهو لا يعرف من هو الله الذي يبحث عنه في أعماق وجوده.

إن البشرية اليوم ظامئة ولكنها لا تعرف أين عين الماء المعين! إن الإنسان الغربي الذي سأم حياته الضيقة يبحث عن المطلق الذي يرضي عقله ويملأ قلبه والإله الذي يقدمه له الإنجيل المحرف لا يمكن أن يقبله العقل ولا يرتوي منه القلب. انه إله مجسم ومجسد ومثلث... آن الأوان للباحثين عن الحقيقة في الحضارة الغربية أن ينهلوا من نهج علي في معرفة الله حيث يقول لهم إن أول الطريق نحو سعادة الإنسانية هو معرفة الله: «**أَوّلُ الدِّين معرفته**» ولكن علياً عندما يريد أن يقود البشرية نحو معرفة الله لا يقودها معصبة العينين بالأوامر الفارغة ولا بالخرافات والأساطير ولا يرميها في الأوهام ويطلب منها أن تقفل عقولها وتكتفي بالتعبد المحض، انّه يأخذ بيدها نحو برهان النظم فيصف لها المخلوقات وأعاجيبها فيصل لها إلى الله الخالق ثم يجعلها تسير نحو الله الرب الواحد.

إنه لا يرضى بمعرفة تبقى في حدود التصورات والظنون والأوهام... فيقول: «**وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ اَلتَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ اَلتَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ اَلإِخْلاَصُ لَهُ**»[1]، انه الإله الواحد الذي يجذب الإنسان إليه ومن لا يله الخلق

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ١.

إليه فلا يكون إلهاً، فهو الذي إذا عرفه الخلق ولهوا نحوه مخلصين له الدين، وكمال هذا الإخلاص نفي الصفات عنه، أي نفي صفات المخلوقين عنه فالمخلوق له ذات وله صفات زائدة على ذاته حدوثاً وبقاءً... ولكن الله سبحانه قد اتحدت ذاته بصفاته فهي شيء واحد لا يقبل التجزئة والتعدّد.

هو ذات كلّها قدرة وكلّها علم وكلّها حياة...

وكما انّ الذات مطلقة فالصفات كذلك مطلقه فلا فصل بين الصفات ولا فصل بينها وبين الذات فالفصل يعني الحدود والتجزئة... فمن وصف الله كما يصف المخلوقين فقد قرنه ومن قرنه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه.

والمتعدّد والمجزّأ والمحدود ليس هو الإله المطلق الذي يله إليه الخلق في أعماقهم ويبحثون عنه بعقولهم انّ من يعبد إلهاً مجزّأ في الأقانيم الثلاثة كما يقول علماء اللاهوت أو الإله الذي ينزل السماء الدنيا ويجلس على الكرسي كما يقول ابن تيمية[1].

إنّما يعبد إلهاً غير الله... فالله خالق هذا الكون والعلة الأولى لهذا الوجود هو الذي يدلنا على معرفته إمام المعرفة التوحيدية وباب مدينها علي عليه السلام... انه الإله الذي «من جزأه فقد جهله» انّه المطلق في جميع صفاته وانّه الذي أطبق بجميع صفاته على كلّ هذا الوجود، وقد أوضح علي هذا المعنى في دعاء كميل فقال: «**اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء وبقوتك التي قهرت بها كل شيء وبعلمك الذي أحاط بكل شيء وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء وبنور**

(١) انظرابن تيمية، صائب عبد الحميد: ص ١١٨.

وجهك الذي أضاء له كل شيء... »[1].

فتعدّد الصفات تعني ان هنالك تعدّداً وهنالك حدود وهنالك ينتهي هذا ليبدأ ذاك وهناك غروب وشروق وهذا يعني الحاجة والنقص.

إنّ طريقة علي في تعليم التوحيد كطريقة إبراهيم الخليل والتي هي طريقة الجمع بين القلب والعقل، هذه الطريقة توصل إلى رؤية ملكوت السماوات والأرض وترقي بالإنسان إلى قمة اليقين.

﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾ (الأنعام: ٧٥).

خرج إبراهيم من الكهف وهو يبحث عن الإله الذي يحبّه قلبه، لكنه يعرف أنّ الإله الذي يجب أن يكون محبوباً هو الإله الذي لا يأفل، أمّا الآفل فلا يكون محبوباً، وإذا لم يكن محبوباً فلا يكون إلهاً.

الإله محبوب والآفل غير محبوب فالآفل ليس إلهاً.

نظر إلى الكوكب فوجده آفلاً فقال ليس هذا المحبوب فهو ليس هو إله...

ثمّ نظر إلى القمر فلما أفل قال ليس هذا الذي أحبّ فليس هذا بإله.

نظر إلى الشمس فلما أفلت قال إنها وإن كانت أكبر ولكنها آفلة، والآفلة ناقصة، والناقص ليس هو الإله الذي يبحث عنه قلبي.

فترك الحواس ورجع إلى العقل ونادى وأعلن في قومه يا قوم إني بريء مما تشركون، إن آلهتكم التي تدركونها بحواسكم كلها آفلة.

---

(١) مفاتيح الجنان دعاء كميل .

«والملكوت هو رؤية الأشياء من جهة انتسابها إلى الله تعالى وقيامها به وهو أمر لا يقبل الشركة ولا يزول عنه إلى غيره... والكوكب والشمس والقمر تغيب بعد حضورها وما هذا شأنه لا يكون له الملك والتدبير فلا يكون رباً»[1].

وأنا لا أحبّ الآفلين وأحبّ الإله الذي لا يعتريه الأفول والزوال.

الذي لا يغرب ولا يغيب، الحاضر في كلّ شيء القائم على كلّ شيء.

﴿ **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذَا رَبِّي هذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا * وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام: ٧٨ـ ٧٩).

الإله الذي شقّ هذا الكون من العدم وفوق المكان وأعلى من الزمان، إنّه لا إله إلا الذي لا يحتويه ولا يخلو منه مكان ولا يحدّه زمان، هذا هو الإله الذي يبحث عنه القلب ويهدي إليه العقل لا الحواس، وكل ما يفرض سواه هو فرض لشريك والإله الحقيقي لا يقبل الشريك فهو فرض باطل.

وإني وجهت وجهي حنيفاً للإله الذي لا يقبل الشريك الإله الذي وسع علمه كل شيء وهنا يصل إبراهيم إلى الملكوت وإلى علم الله الحضوري بكل شيء فيرى الله حاضراً في كل شيء ويرى قوة الله وسلطانه على كل شيء فيقول لقومه: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (الأنعام: ٨١) وعلي يجمع أيضاً بين القلب والعقل، فهو عندما يقول: «**وكمال التوحيد الإخلاص له ونفي الصفات عنه**» فإنما يقول إنّ الإيمان بالتوحيد لا يكون إلا إذا جذب هذا الإله الواحد بكل

(١) تفسير الميزان، العلامة الطبأطبائي: ج٧ ، تفسير الآيات ٧٥-٨١ سورة الانعام .

وجودك وبجميع شؤونك وهذا لا يكون إلا بنفي كل صفات المخلوقين عنه.

إنّ الكثير ممن يبحث عن الله يصل بالتفكر والنظر في الأنفس والآفاق إلى الله الخالق... ولكنه عندما يصل إلى الخالق يريد أن يتعرف عليه فلا يجد سوى التشبه والتجسيم أو الإبهام والتعطيل... فيبقى حائراً فأما أن يخدع نفسه بالتعبد الأعمى أو أن يقول بالطبيعة والصدفة فيريح نفسه. ولو أخذ العلم من أهله ودخل العقل البشري مدينة معرفة التوحيد من بابها لما وقع في هذا التيه.

إنّ الحضارة الإنسانية إذا ما نهلت من معين النهج العلوي فإنها سوف تقدم للبشرية معرفة الله معرفة تبدأ بالنظر والتفكر والبرهان والدليل وتنتهي بالرؤية والوله والمحبّة...

إنّ المنهج العلوي في معرفة الله يأخذ بك من برهان النظم ويتحدّث لك عن عجائب الخلق فيتحدّث لك في وصف النملة: «**أُنْظُرُوا إلى اَلنَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ اَلْبَصَرِ وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ اَلْفِكْرِ كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا تَنْقُلُ اَلْحَبَّةَ إلى جُحْرِهَا وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا وَفِي وُرُودِهَا لِصَدَرِهَا مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا لاَ يُغْفِلُهَا اَلْمَنَّانُ وَلاَ يَحْرِمُهَا اَلدَّيَّانُ وَلَوْ فِي اَلصَّفَا اَلْيَابِسِ وَاَلْحَجَرِ اَلْجَامِسِ**»، ثم ينتقل إلى السماء والكون فيقول عليه السلام: «**وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِكَ مَا دَلَّتْكَ اَلدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ اَلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ اَلنَّخْلَةِ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ وَغَامِضِ اِخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ وَمَا اَلْجَلِيلُ وَاَللَّطِيفُ وَاَلثَّقِيلُ وَاَلْخَفِيفُ وَاَلْقَوِيُّ وَاَلضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ وَكَذَلِكَ اَلسَّمَاءُ وَاَلْهَوَاءُ وَاَلرِّيَاحُ وَاَلْمَاءُ**» إلى أن يقول: «**وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ أو جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ**»[1]...

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ١ .

وعندما يوصلك إلى الإله الخالق لهذا العالم المنظم الدقيق يرفعك إلى مرحلة أخرى ألا وهي معرفة هذا الإله لا بما انه الخالق وإنما بما هو الإله الواحد وبما هو الرب وبما هو الله أي الذات الجامعة للكمال المطلق انه لا يتركك حائراً لتقع في أوهام التشبيه والتجسيم أو تقف إيمانك في فراغ النفي والتعطيل فتبتعد عن الله بعد أن وصلت إليه وتهوى في وديان الجهل أو الشرك بعد أن وصلت إلى بوابة الإيمان...

أيها الباحث عن الله تعال إلى ولاية علي ليأخذ بيدك ويدخلك إلى حصن المعرفة التوحيدية الخالصة فيقول لك: «**مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ وَلاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ وَلا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إليه وَتَوَهَّمَهُ كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ**»(١).

إنّ علياً بهذا المنهج يدعو الإنسان الباحث عن الحقيقة ويقول له: انك وبعد أن أوصلك عقلك من رؤية هذا الكون المنظم انه لابد من قوة عاقلة قادرة قد خلقت هذا الكون... فواصل مسيرتك وحلق مع طائر العقل ليعرفك بأنّ هذا الخالق لا يكيّف بكيف ولا يمثّل بمثال ولا يناله الوهم ولا يشار إليه ببنان وانّ كلّ شيء في هذا الوجود معلول له؛ لأنّ كلّ شيء قائم في سواه... إلا الله خالق هذا الوجود فهو القائم بنفسه... هذه العبارة على اختصارها تلخّص لنا برهان الإمكان للشيخ الرئيس ابن سينا... فالأشياء كلّها ممكنة ومتساوية الطرفين من حيث الوجود والعدم فأبواب الوجود مفتوحة عليها وكذلك أبواب العدم ولن توجد إلا إذا تحوّلت من إمكان الوجود إلى وجوب الوجود وهذا لا يحصل إلا إذا أغلقت جميع أبواب عدمها.

---

(١) الخطبة ١٨٦ .

فهي بحاجة إلى واجب يهب لها الوجود فيغلق أبواب العدم عليها فيوجدها وقائم تستند إليه فتقوم وتوجد وحيث إننا نرى الأشياء موجودة وقائمة فلابد لها من علة أولى واجبة بنفسها أفاضت عليها الوجود ومسند قائم بنفسه وهب لها القيام فرأيناها قائمة... وهي العلّة الأولى التي لولاها لبقيت الأشياء في حيز الإمكان ولم يقم لها قائم في الوجود.

وواصل مسيرتك في معرفة الله مع علي ليرقى بك علي من برهان الإمكان إلى برهان الصديقين وليقول لك بأن الله تعالى «**مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُقَارَنَةٍ وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُزَايَلَةٍ**» وانّه « **وَالظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ وَالْبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ**»[1]، «**وَمَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ وَمَنْ قَالَ عَلاَمَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ**» وانّه «**هُوَ الله اَلْحَقُّ اَلْمُبِينُ أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى اَلْعُيُونُ**»[2] أي انه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو الحاضر في كل الوجود بل هو الذي بنوره ظهر الوجود...

وهذا البرهان كما يثبت العلة الأولى كذلك يثبت توحيد الله سبحانه، فان الإله الذي صفاته عين ذاته ووجوده عين ذاته وليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود فهو الموجود المطلق الذي لا يقيد وجوده شيء، فلا مجال لفرض إله آخر حيث ان غير المتناهي قد ملأ الوجود كله فأينما تولوا وجوه عقولكم فثم وجه الواجب الواحد الأحد غير المحدود فأين المجال لفرض غيره.

فهو سبحانه دليل نفسه في التوحيد وهو البسيط المحض أي الوجود الذي لا يفقد شيئاً وإلا صار مركباً من الوجود والعدم والمحدود الذي يعتريه العدم مخلوق وله حاد قد حدّه فهو محتاج إلى غيره والمحتاج لا يكون خالقاً بل هو

---

(١) الخطبة ٩٦.

(٢) الخطبة ١٥٥.

مخلوق ويحتاج إلى خالق لا يكون مثله محتاجاً إلى غيره.

وبعد أن يفتح علي بمعرفته عين عقلك يدعوك وهو في قمة قطب رحي الإيمان والتوحيد التي لا يرقى إليها الطير وينحدر عنها السيل. يدعوك ليفتح قلبك لترى حقائق الإيمان فيقول تعال معي وسر في ولايتي فاني ما كنت أعبد رباً لم أره.

«**لاَ تُدْرِكُهُ اَلْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ اَلْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ اَلْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ اَلأيمَانِ**»[1].

وكذا يصل السالك في طريق الولاية العلوية ونهجه في المعرفة التوحيدية إلى الله الحاضر في كل شيء من هذا الوجود بل هو نور السماوات والأرض فلا يرى العارف بالله على النهج العلوي شيئاً إلا ويرى الله قبله وفيه وبعده...

وهذه المعرفة التوحيدية تجعل الإنسان يشعر بانه غير منفصل عن الله في كل زمان ومكان وتسوقه في أن يكون مظهراً وخليفة لله وان تظهر فيه صفات الكمال المطلق الإلهي ولكن ما يدمي القلب ويجلب الهم ان البشرية محرومة من هذه المعرفة... فلو نظرنا إلى عقيدة أمتنا الإسلامية لوجدنا ان الصورة المنطبعة في أذهان أكثر المؤمنين عن خالق هذا الكون هي بعيده كل البعد عن الصورة التي ترسمها آيات القرآن والتي رأينا تفسيرها وتوضيحها في كلمات المفسر والمبين للقرآن علي أمير المؤمنين.

فالذي يؤمن بالله بما انه غول ضخم وعملاق كبير موجود في السماء وانه ينزل إلى السماء الدنيا كما ينزل ابن تيمية من منبره فإنّه يؤمن بخالق غير الله خالق السماوات والأرض. والإيمان بهكذا إله مضافاً إلى انه لا يحقق الأثر المطلوب من

---

(١) الخطبة ١٧٩.

الإيمان على الحياة فإنّه يشجع على الإلحاد وإنكار الخالق لأن أرباب العقول النيرة وكذلك أصحاب الفطرة السليمة والباحثون عن الحقيقة المطلقة والإله الحقيقي الذي يمثل الكمال المطلق، إذا ما دعوا إلى مثل هذا الإله الذي يؤمن به عامة مجتمعنا فإنهم سوف يرفضونه.

وهذا هو من أهمّ الأسباب لبعد الحضارة الغربية عن الله، وحول ذلك يقول الشهيد مرتضى مطهري: «إن السبب في أن الكثير من العلماء والمفكرين يشككون في وجود الله لا لأن الأدلة على وجود الله ليست مقنعة لهم بل لأن صورة القضية قد ارتسمت خطأً في أذهانهم من الأساس حيث ان ما يتصورونه باسم الله ليس لا يمكن الاستدلال عليه فحسب بل لأنه لا يوجد قطعاً وإلا فإن وجود الله واضح لا يقبل الشك والارتياب ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ (إبراهيم: ١٠)، وينقل الشهيد مطهري عن أحد علماء الغرب في المعرفة الإلهية ويدعى (والتراسكارلند) قوله: «في العائلة المسيحية يتعلم الأطفال الإيمان بوجود إله يشبه الإنسان وان هؤلاء الأطفال عندما يرقى مستواهم العلمي والفكري يرون ان ذلك المفهوم الخاوي عن الإله الشبيه بالإنسان لايتناسب مع الأدلّة المنطقية والمفاهيم العلمية وهكذا وبعد أن يشعروا بالتناقض بين العلم وما آمنوا به فانهم يتركون هذا المفهوم عن الله بشكل كامل ويخرجون من دائرة الفكر الديني»[1].

وقد كانت هناك محاولات لإصلاح الكنيسة وإدخال العقل في معرفة الله، ولكن العقل الأوربي الذي استطاع أن يبدع في ميادين الحياة المادية قد اخفق في علم اللاهوت لم يتقدم ولا خطوة وبقي عاجزاً أمام القول بالتجسم والأقانيم

(١) أسباب الجنوح إلى الفكر المادي، (كرايش به ماديكري) الشهيد مرتضى مطهري.

الثلاثة. فهذا (تومس اكوناس) الذي يعرف بالقديس والذي واجه فلسفة ابن رشد في أوربا حتى صوره الفن الإيطالي وكأن ابن رشد منكب على وجهه تحت قدميه[1].

وقد سعى القديس تومس للجمع بين العقل والدين ولكنه وقع في التناقض الواضح الذي لا يمكن أن يقبله العقل البرهاني، فهو من جهة يقول: إن الله هو الوجود نفسه وان العلل يجب ان ترجع إلى علة أولى لأن التسلسل مستحيل ويقول أيضاً: إن الذات الإلهية لا يمكن إدراكها بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه انه لا يتحرك ولا يتعدد ولا يتحول ولا يحيط به زمان ولكنه بعد ذلك يقول: إن القول بوجود أقانيم ثلاثة في هذه الوحدة الإلهية لهو سر غامض لا يدركه العقل ولابد أن نعتقده بإيمان الواثقين»[2].

كما انّ مارتن لوثر الذي قاد الثورة الإصلاحية ضد رجال الكنيسة قد دعا إلى تجريد القساوسة من مناصبهم وإلغاء وساطتهم بين الله والناس ودعا إلى إسقاط حكومة الأمراء المستبدين ولكنه في مجال معرفة الله لم يقدم شيئاً يتناسب مع نهضته الإصلاحية وبقي لاهوته على ما كان عليه في ما يسمى بعصر الإيمان.

وكان يقول: «لا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة أن تكفر عن الذنوب التي اقترفها خير الناس ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المفتدية ـ آلام ابن الله وموته ـ ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهي، وكما قال بولص للرومان: «إذا كنت تقر بلسانك إن الرب

---

(١) ويل ديورانت، قصة الحضارة: مج١١، ج٢١، ص٢٨.

(٢) المصدر السابق: ص١٣١.

يسوع وإذا كنت تؤمن في قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه بعد الموت فإنك سوف تنجو» ويقول لوثر في موضع آخر: «إننا لا نعلم شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة» وعندما سأله شاب لحوح من علماء اللاهوت: أين كان الله قبل خلق العالم؟ أجاب بأسلوبه الخطابي الفظ: كان يبني جهنم لهذه الأرواح الفضولية المغرورة من أمثالك!»[1]. فهلمي أيتها البشرية الحائرة التائهة في صحراء البعد عن معرفة الله تعالى لتنهلي من معين المعرفة وسلسبيل التوحيد تعالي ليسقيك علي كأساً روية لن تضمأي بعدها أبداً.

تعالي أيتها البشرية وحطي رحلك في ظل «**شَجَرَةُ اَلنُّبُوَّةِ وَمَحَطُّ اَلرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ اَلْـمَلائِكَةِ وَمَعَادِنُ اَلْعِلْمِ وَيَنَابِيعُ اَلْـحُكْمِ**».

وما أعظم كلام فاطمة الزهراء أم الرسالة والإمامة عندما استشرفت ونظرت بعين ربها إلى مستقبل الأُمّة المقفر المجدب بتركهم نهج علي فقالت: «ويحهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطبين بأمور الدنيا والدنيا وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها وحملهم عليها ولسار بهم سيراً سجحاً لا يكلم خشاشه ولا يكل سائره ولا يمل راكبه ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً روياً فضفاضاً تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه»[2].

(١) انظر المصدر السابق: مج١٢، ج٢٤، ص٥٨ ــ ٦٠.

(٢) بحار الانوار محمد باقر المجلسي ج٤٢ ص١٦٠.

ثورة العقول

(التنمية العقلية):

عنوان قد يبدو غريباً لأوّل وهلة، ومن يقرأه يتبادر إلى ذهنه إننا نريد أن نتحدث عن تظاهرة تطالب بحرية العلم والعلماء أو اعتراض أو اعتصام قام به أصحاب الاختصاص والكفاءات أو انتفاضه على الجهل والتخلف.

والحقيقة إن المقصود هو أكبر من هذا كله ـ وهو (الدين) في أعمق معانيه وأكملها وأوسعها. وفي أبلغ عبارة لبيان دور الأنبياء ـ قادة الدين ـ ذكرها إمام العقل والعلم والفصاحة والبلاغة حيث قال: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَـهُمْ دَفَائِنَ اَلْعُقُولِ**».

فوصف الأنبياء بأنهم (قادة ثورة العقول).

حقاً إنّها أجمل لوحة يرسم بها دين الله وأروع لقب يوصف به الأنبياء.

ماذا عليك يا دنيا لو ثنيت الوسادة لعلي كي يعرِّفَ البشرية بدين الله... كي لا تأخذه من الكنيسة ورجال الاكليروس الذين حاربوا العلم والعلماء

وعطلوا العقول وحاربوا الفكر باسم الدين والأنبياء... مما أدى بالمجتمع الأوربي الناهض المتطور إلى أن يرى نفسه في مفترق طريقين اما الدين واما العقل والتطور فاختار العقل والعلم والتطور ورفض الدين... إلا في حدود الطقوس والنصائح الأخلاقية... فياليت الدين والقرآن كان يعرض عليهم ببيانه العلوي الذي يتناغم مع العقول ويجذب القلوب والأرواح...

وياليتهم علموا ان أساس الدين هو العقل وان العقل هو الذي ينتج الإيمان بالله والعقل هو الذي يثبت التوحيد وكذلك الصفات والعدل والنبوة والمعاد والإمامة.

وما النصوص الدينية في مجال العقائد والأصول إلا إرشادات للعقل كي يتحرك وينتج الأدلة والبراهين...

إن النبي قد جاء يثير عقول الناس فإذا ما ثارت العقول وبدت من مكامنها فإنها سوف تنجذب نحو النبي...

إن المؤمنين الأوائل الذين حملوا ثقل الرسالة على أكتافهم كسلمان وعمار وأبي ذر ومصعب بن عمير وخديجة وسميه... إنما جذبتهم عقولهم وقلوبهم نحو رسول الله.

لقد كانوا يبحثون في عقولهم عن حقيقة الإنسانية وعندما رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسمعوا آيات القرآن فكأنما رأوا قلوبهم وعقولهم مجسمة في آيات بينات ورجل يتحرك على الأرض فتطابقت عقولهم الباطنة مع العقل الظاهر وهو الرسول فقالوا هذا ما كنا نبغ لقد وجدنا ضالتنا المنشودة.

لم يجذبهم رسول الله بتخويف ولا ترغيب ولا بالوعود والأماني ولم يخدعهم بالخرافات والأساطير ولم يسحر عيونهم باللعب في خيالهم وأوهامهم

وإنما سحر عقولهم وقلوبهم. وسحر القلوب والعقول غير سحر العيون وإنما تسحر العيون إذا ما تعطلت العقول والقلوب.

وسحر العيون كالسراب ينتهي إذا ما تحركت العقول والقلوب.

وهؤلاء وكل من يؤمن بالرسول بعقله وقلبه يزداد إيماناً وحباً وتفانياً في سبيل الله في كل يوم...

لقد كان مصعب بن عمير شاباً لم يبلغ العشرين وكان مدللاً بين أبويه الغنيين يأكل ألذ الطعام ويلبس أفخر الثياب... ولكن كان حراً يبحث عن لذة لم يجدها في ترف الأبدان... لقد كان يبحث في باطنه عن الإنسانية الضائعة في ظلمات الجاهلية. فلما رأى نور الإنسانية قد بزغ في الصادق الأمين والسراج المنير وإذا به يبيع كل ما لديه من حياة مترفة ليشتري لذة الإيمان بالرسول والرسالة... ويلتصق بالرسول في أحلك ظروفه وفي أيام الحصار في شعب أبي طالب وإذا بهذه الأيام العسيرة تتحول بالنسبة إلى مصعب إلى جامعة يتخرج منها مصعب معلماً للقران وممثلاً للرسول في المدينة قبل الهجرة، ويذهب هذا الفتى إلى المدينة ويستطيع على رغم صغر سنه وصعوبة مهمته في هداية مجتمع قبلي ألف الصراع الداخلي أحقاباً طويلة... ويستطيع على رغم صغر سنه أن يفتح العقول والقلوب ويهيئ الأرضية لقدوم رسول الله صلى الله عليه واله إلى المدينة التي كانت قاعدة دولة الإسلام والمنطلق نحو العالم بأسره.

إن الدين الذي لا يرضى لأتباعه التقليد الأعمى والتبعية العشوائية لسنن الآباء والأجداد ولا الانسياق مع العقل الجمعي بغير علم ووعي ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ (الإسراء:٣٦) ويدعو في المئات من آيات كتابه إلى التعقل والتفكر والتدبر ويسمى نبيه بالعقل

الظاهر والمؤمنين بأولي الألباب وأولي العلم، مثل هذا الدين حري بأن يقود الحضارة الإنسانية ويصنع المجتمع البشري المتوازن في الروح والبدن ويبني الأرض العامرة المرتبطة بالسماء والخلود.

ولكن هذا لا يكون إلا إذا سار هذا الدين على الخط الذي رسمته السماء.

ولقد شاء الله سبحانه أن يكون لهذا الدين حصن توحيد مفتاحه الولاية... «كلمة لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي بشرطها وشروطها وأنا من شروطها»[1]. وشاء الله لهذا الدين مدينة علم هي الرسول وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها.

ولكن إذا ما وقع علم الدين بيد مدرسة التأويل والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ووقع بيد البلاط الأموي أو العباسي فإن مصير هذا سوف يصبح إلى حد كبير شبيهاً بمصير الدين المسيحي عندما وقع بيد رجال الاكليروس والكنيسة الرومانية فكما ان الكنيسة قد حرفت الإنجيل وصورت دين عيسى المسيح بأنه مخالف للعقل والعلم والتطوّر والتجدّد... فإنّ مواقف من قبيل إبعاد القرآن عن الرسول ومنع كتابة السنة والقول بكراهة السؤال وفتح الباب للاجتهاد بالقياس الظني في مقابل النصوص وتحريف العقائد والتفسير بالرأي والصراع الشديد على مسألة خلق القرآن، كل هذه وأمثالها شوهت صورة الدين الجميلة وأعاقت الأُمّة كثيراً من أن تأخذ مكانتها بين الأمم...

انّك عندما ترى الإمام مالك يرد سائلاً دخل على مجلسه فسأله عن

---

(١) الحديث المعروف بالسلسلة الذهبية للإمام الرضا عليه السلام، توحيد الصدوق: ص٢٥.

الاستواء على العرش فأجابه وقد بدت عليه علامات الغضب من السؤال ويقول: إن الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والاعتقاد به واجب والسؤال بدعة ثم يأمر أصحابه بأن يخرجوا السائل من المجلس[1].

هذا الموقف يشبه موقف مارتن لوثر الذي يعد قائد لثورة الإصلاح الديني ولكنه مع ذلك لا يسمح للشاب الذي يدرس في كلية اللاهوت أن يسأله سؤالاً عن المعرفة الإلهية ويجيبه بأسلوب الازدراء والتهكم.

وعلى هذا المنوال نرى الإمام الشاطبي الذي يعد من أبرز الفقهاء الذين طوروا الفقه السني بتنميته لفقه المقاصد، ولكنه مع ذلك يفرد باباً في كتاب الموافقات تحت عنوان ذم كثرة السؤال والتعمق وأن التعمق مخالف لهدي الرسول والسلف الصالح[2].

ولكنّك إذا جئت إلى النهج العلوي في التعامل مع العقل والعلم لوجدته حقاً كما قال رسول الله فيه إنه باب مدينة العلم، فهو على العكس مما عند الإمام مالك والإمام الشاطبي والمصلح المسيحي مارتن لوثر نجد علياً يفتح أبواب السؤال والاستفهام حتى في اعقد المسائل اللاهوتية كالقضاء والقدر ورؤية الله... ويعرض نفسه لجميع الباحثين عن الحقيقة ويقول: «**سلوني قبل أن تفقدوني**» فهو الذي يأمر الناس بالسؤال لا أن يمنع الناس من السؤال والتعمق ويتضجر منهم.

وهذا (ذعلب اليماني) يسأله سؤالاً من أعمق أسئلة علم الإلهيات حيث

---

(١) تاريخ علم الكلام، شبلي النعمان: ج١، ص١١ ــ ١٢.

(٢) انظر الموافقات: ج٤، ص١٩٩ وج١، ص٣٢، المكتبة العصرية ــ بيروت.

قال: هل رأيت ربك يا أميرالمؤمنين؟ فقال عليه السلام: **أفأعبد ما لا أرى؟** فقال: وكيف تراه؟ فقال عليه السلام: «**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان**» ثم يفصل له في الجواب ذاكراً ملامح هذه الرؤية القلبية[1] ويقسم علي الناس إلى ثلاثة أقسام فيقول: «**الناس ثلاثة؛ فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق**»[2].

قال هذا الكلام لواحد من خواصّه وخيرة أصحابه وهو يتحسّر ويتمنّى أن يكون هناك حملة للعلم وأوعية صالحة يسكب فيها العلم والمعرفة.

إنّ علياً بهذا الكلام يرسم للخط الإلهي طريقاً واحداً وهو طريق العلم فالإنسان إمّا أن يكون عالماً ربانياً يربط الناس بربهم بقوله وعمله أو يكون متعلماً يبحث بعلمه عن النجاة من الانحراف والوقوع في التيه والظلمات.

فإذا لم يكن الإنسان لا عالماً ولا متعلماً في طريق الله سبحانه، فإنّه همج رعاع تائه في ظلمات الجهل، يميل مع كلّ ريح، ويرقص مع كل نغمة، ترمي به الأهواء في كلّ مكان سحيق وتحركه الأبواق الإعلامية كيفما تشاء.

فالدين عند علي هو العلم ويؤكد هذا المعنى لكميل ويقول له: يا كميل معرفة العلم دين يدان به[3].

(١) انظر نهج البلاغة: خ١٧٩.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ١٣٧.

(٣) نهج البلاغة الحكمة ١٣٧.

علم سبيل النجاة لا المصالح والرغبات

الأمر الأساسي الذي يبينه عليٌّ للحضارة الإنسانية هو انّ العلم المطلوب هو العلم الذي يدرس لأجل الله ويطلب لأجل نجاة البشرية.

وهذا أمر خطير ينبغي على الحضارة المعاصرة أن تلتفت إليه إن أرادت أن تبني الحضارة الإنسانية.

إنّ المنهج العلوي يرفض الجهل ويراه كالموت للأمة ولكنه أيضاً يريد علماً يهب للأمة الحياة وذلك هو العلم الرباني والتعلم لأجل نجاة البشرية والعلم الرباني لا يقصد به علم الفقه والعقائد والأخلاق وما يتعلق بالشريعة فحسب وإنما كل العلوم يجب أن تكون ربانية وإلا فإنها ستوقع البشرية في الهلاك والدمار.

فالفيزياء والكيمياء وعلوم الطب والحياة إذا لم تكن ربانية أي تُدرَس وتُدرّس لنجاة البشرية وإذا ما وقعت بأيدي المستبدّين والطغاة فإن هذه العلوم سوف تسخر لصناعة القنابل النووية والكيميائية والجرثومية وأسلحة الدمار فتقتل بها الملايين وتقهر بها إرادة الشعوب والأمم كما تتحقق مآرب ومصالح المحتلين والغزاة والجبابرة والظلمة.

إن أميرالمؤمنين عليه السلام يضع أنامله على موضع الداء ويصف الدواء... ولكن علياً عندما يصف دواءً للبشرية فإنّه لا يصف دواء يصلح عضواً للبشرية ويفسد أعضاء أخرى.

إن الجهل آفة مهلكة للحضارة الإنسانية، والعلم هو الأساس الذي تنطلق منه الحضارة ولكن ليس كل علم علماً يخدم الإنسانية وإنما هو العلم الرباني أي العلم الذي يقترن مع الدين... وبذلك يحل المنهج العلوي الجدل المعروف القائم بين الدين والعلم، هذا الجدل الذي أثارته ردة الفعل تجاه الكنيسة الأرثوذوكسية ومعرفتها السلبية تجاه العلم والعلماء.

ولكنك إذا أخذت الدين من علي فإنّه سيقول لك بما أنّ الدين والعلم ليسا أخوين توأمين فحسب بل هما كالشيء الواحد. ولذلك تراه يسمى العامل بغير علم كالسائر على غير طريق «**فَإِنَّ اَلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ فَلا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ اَلطَّرِيقِ إِلّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ وَاَلْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى اَلطَّرِيقِ اَلْوَاضِحِ**»[1] فهو ضالّ عن الدين ويسمى العالم الذي يخالف علمه كالجاهل الحائر «**فَإِنَّ اَلْعَالِمَ اَلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ اَلْحَائِرِ اَلَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ بَلِ اَلْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَاَلْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ**»[2] فالمتديّن بغير علم ضالّ عن طريق الدين والعالم بغير دين كالجاهل الفاقد للعلم.

ويقول علي أيضاً: «**رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وَعِلْمُهُ مَعَهُ لاَ يَنْفَعُهُ**»[3].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٤٥.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٨٦.

(٣) نهج البلاغة الحكمة ١٠٧ .

وعندما يتوج النبي علياً بوسام الولاية على المؤمنين ويقول: «**من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه...**» فإنّه يتوّجه أيضاً بوسام آخر ألا وهو وسام باب مدينة العلم النبوية حيث قال: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها**»[1].

فولاية علي للأمة ليست فقط مصدراً للحكم وإنما هي مصدر للعلم أيضاً.

وعندما يصف علي أهل البيت يقول: انهم «**فَإِنَّهُمْ عَيْشُ اَلْعِلْمِ وَمَوْتُ اَلْـجَهْلِ**»[2].

فدور قادة الدين هو إحياء العلم وإماتة الجهل والخيرات كلّها لا تفتح إلا بالعلم.

وبعد هذه الصورة الجميلة للدين التي يرسمها لنا علي عليه السلام والتي يبدو لنا فيها الدين والعلم كالشيء الواحد فهل يمكن لمنصفٍ أن يحمّل الإسلام المحمدي العلوي الأصيل تبعات أخطاء الكنيسة الرومانية والمذهب المسيحي الأرثوذوكسي الذي كان يحارب العلم والتجدد أو أفكار بعض المجموعات الإسلامية المتحجرة التي هي متطفلة على الإسلام... فيقول انّ العقل والعلم خارج عن الدين وانّ الدين منهج قديم وانه إذا لم يتّبع للعقل وللعلم فإنّه سوف يصبح عاملاً لتخلف الأُمّة قياساً على تخلص العقل من الدين المحرف للكنيسة. وان الغرب إنما تطور بفصل العقل عن الدين وان سر تفوق الغرب على جميع

---

(١) الغدير، الأميني: ج٦، ص٧٩.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٤٧.

شعوب الأرض هو العقلانية الجديدة التي حولت التشريع والقوانين إلى مسألة بشرية بحتة يزيدون على ذلك انه ينبغي أن تقرأ آيات القرآن بعقل الحداثة أو ما يسمونه أيضاً بعقل أو بعقل ما بعد الحداثة[1].

وقد فات هؤلاء ان التقدم الصناعي الذي حدث في الغرب لم يحصل بتمرد الغرب على الدين الحقيقي الذي هو الإسلام المحمدي العلوي لا بل ولا حتى على تراث عيسى المسيح وإنما حصل بتمردهم على المسيحية المنحرفة والمستبدة بقيادة الكنيسة الرومانية، ولو كانت الثورة الصناعية الأوربية قد أخذت علمها اللاهوتي من القرآن ومن نهج البلاغة أو حتى لو أنها التزمت بتعاليم اليسوع نبي الله كما أنزل الله لا كما اختلقه القساوسة والبابابوات، لكانت الحضارة الأوروبية قد تقدمت على محورين، أحدهما محور العقل العلمي والصناعي والآخر محور العقل الإنساني الإلهي، ولكنها بسبب ردة فعلها تجاه دين الكنيسة المحرف فقد تقدمت في محور واحد وطارت بجناح واحد وهو جناح العلم المادي وتركت الجانب الإنساني الإلهي ولذلك فإنها نهضت في الجانب الصناعي والعلمي والمادي، ولكنها هوت وسقطت في جانب الإنسانية فهي قد ملأت البطون الأوربية وأشبعت الغرائز ولكنها فرغت القلوب من الشعور بالسعادة والهدفية في الحياة كما انها قاربت بين الأبدان وأوجدت سرعة هائلة في الاتصال بين الصور والأصوات ولكنها أوجدت فجوات هائلة بين القلوب والأرواح وحفرت خنادق مرعبة بين الشعوب والأمم، فالحضارة الصناعية الأوربية ما ان بلغت معاملها مرحلة الإنتاج الهائل ووجدت

---

(١) انظر كتاب نحو نقد العقل الديني، محمد اركون، ترجمة حاتم صالح: ص١٢ ــ ١٣، وكذلك: ص٣٣، و: ص٦٩، دار الطليعة ــ بيروت.

منتوجاتها مكدسة حتى راحت تحتل شعوب الأرض بالحديد والنار وتحولهم إلى أسواق استهلاكية وتفرض عليهم إرادتها بما صنعه العقل والعلم المنفصل عن الدين من أسلحة فتاكة ومدمرة. وإنا لنسأل السيد ارگون ومترجمه أين هو عقل الحداثة وأين عقل ما بعد الحداثة ودورهما في تطور البشرية وتقدمها وتحقيق الحرية في تعامل الحضارة الغربية مع الشعوب والأمم غير الغربية. أين هو عقل ما بعد الحداثة الذي تريد منا أن نتبعه ونغير به ديننا وقرآننا. في تعامله مع ناكازاكي وهيروشيما؟ أين هو من فيتنام؟ أين هو من العراق وأفغانستان وفلسطين؟ عليك يا محمد ارگون وعلى كل المخدوعين بفكر الحداثة أن يخلعوا العدسات الغربية ويقرأوا القرآن ونهج البلاغة ليروا ان الدين يدعو الإنسان إلى العلم وتطوير الحياة وإعمار الأرض وان الخيرات لا تنفتح إلا بالعلم وان الله سبحانه فرض على عباده أن لا يتحركوا إلا بالعلم وفرض على العلماء أن يجعلوا علمهم في خدمة الإنسانية جمعاء «**أن لا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ**»[1].

(١) نهج البلاغة الخطبة ٣.

مكافيلي أم علي؟

(التنمية السياسية):

هل السلطة أمر مقدس؟ وهل أنها هدف أعلى يستحق التضحية لأجله بما سواه؟

قليلون جدّاً هم الذين وصلوا إلى السلطة وأجابوا على هذا السؤال بالنفي...

وليس هذا الأمر غريباً، فالملك عقيم بل هو وحش كاسر ولا يعرف لا والداً ولا ولداً، ولكن العجيب أن يأتي مفكر أو فيلسوف فيخيط لهذا الوحش الكاسر المكار المخادع ثوباً مزركشاً بألوان الحضارة ويؤسس به نظرية لقوة الأمم وتطورها وبقائها.

أنها فلسفة (ميكافيلي) التي تملأ رؤوس القوى الكبرى الحاكمة في عالمنا اليوم.

هذه الفلسفة التي تقول: «وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها، وجب علينا أن لا نقبل البحث في العدل والظلم، والرحمة أو القسوة

وما هو خليق بالثناء والازدراء، بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأُمّة وحريتها، وننحّي كلّ ما عدا هذا جانباً».

ويقول أيضاً: «إن الدبلوماسي غير مقيد بالقانون الأخلاقي الذي يتقيد به شعبه... فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجة هذا العمل ذنبه، ذلك ان الغاية تبرر الوسيلة. وما من رجل صالح يلوم رجلاً غيره يحاول أن يدافع عن بلاده أياً كانت السبيل التي يسلكها لهذا الدفاع... فضروب الغش والقسوة والجرائم التي يرتكبها الرجل في سبيل الاحتفاظ بدولته كلها (غش شريف) و(جرائم مجيدة)»[1]!!

ولكي أكون منصفاً فإني ألفت القارئ الكريم إلى أن هذه الفلسفة التي شرعنت لقادة النهضة الصناعية احتلال البلدان ونشر القتل والدمار فيه، لم تكن وليدة الحضارة الغربية وحدها فإنّ الحضارة الإسلامية التي لم تنهل من عين الماء المعين التي دُلَّت عليها، ولم تأخذ علم معرفة الدين من أهله قد أنتجت للبشرية أيضاً فلسفة تاريخ وسياسة تشبه فلسفة ميكافيلي وجلبت للأمة النتائج ذاتها مع فرق انّ فلسفة ميكافيلي جلبت الويلات لخارج أوربا وهذه الفلسفة الإسلامية نشرت الظلم والطغيان والاستبداد في داخل هذه الأمة.

ولم يكتف أصحاب هذا الاتجاه بإصدار الاجتهادات التي أبعدت الدين عن أهدافه العليا، بل جعلته في مقابل أهدافه. وإنّما وصل الأمر إلى اختلاق الأحاديث التي تضفي قداسة مطلقة على سلطة الخلفاء والملوك وتجعلها هي الهدف الأعلى الذي يجب أن يضحى من أجله بكلّ القيم والموازين.

---

(١) أُنظر قصة الحضارة، ويل ديورانت: ج٢١، ص٩٤.

فنقرأ في صحيح مسلم حديثاً عن الرسول ﷺ يقول فيه: «**يكون بعدي أئمة لا يهدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس**» فقال من سمع هذا الحديث من الرسول: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك».

وفي صحيح مسلم أيضاً إن أحد الصحابة سأل الرسول: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراؤنا يسألون حقّهم ويمنعوننا حقّنا فماذا تأمرنا؟ فقال الرسول: «اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»[1].

وهكذا تصنع لنا هذه الأحاديث معادلة في معرفة الدين مفادها : انّ (الدين = السلطة) وانّ هدى الرسول وسنته لو ضاعت على يد السلطان وكان بطانته ووزراؤه شياطين يفسدون العباد وينهبون البلاد، فكل ذلك لا يضر ويبقى السلطان هو ولي الأمر الذي تجب طاعته وحفظ سلطته؟!

ووصل الأمر في إبعاد هذه الأُمّة عن معرفة إسلامها الأصيل وتشويه الصورة الجميلة لهذا المنهج الإلهي الذي يهدي للتي هي أقوم أن أجهزة الإعلام الأموي عملت أقصى جهودها في تخريب ثقافة الأُمّة حتى صنعت تبادراً في ذهنيتها لكلمة خليفة الله وخليفة الرسول مرادفاً للسلطان وللأمير وجاوزوا ذلك إلى ما هو أكثر فلم يقفوا في مستوى مساواة السلطان الأموي بالرسول بل جعلوه أفضل من الرسول. فقد روى الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٨٩هـ: إن خالد بن عبد الله القسري والي الوليد بن عبد الملك على مكة خطب في الناس

---

(١) انظر كتاب معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري: ج٢، ص٤٧٤ ــ ٤٧٥، نشر المجمع العالمي لأهل البيت.

فقال: أيها الناس أيهما أعظم خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله أولم تعلموا فضل الخليفة ألا إن إبراهيم خليل الرحمن استسقى فسقاه ملحاً أجاجاً واستسقاه الخليفة فسقاه عذباً فراتاً حفرها الوليد بن عبد الملك في الثنيتين ثنية طوى وثنية الحجون فكان ينقل ماؤها ويوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم قال ثم غارت البئر فلا يدري أين هي اليوم[1].

وهكذا يصبح السلطان فوق الدين وفوق الرسول وتصنع له المناقب والكرامات كي تملأ بها أذهان الناس... وإذا ما فكر أحد أو اعترض على مخالفة الأمير لنصوص القرآن والسنة القطعية فإنّ التبرير جاهز وهو انّ الأمير قد اجتهد فأخطأ فله أجر واحد!...

وباب التبرير والتأويل لم يفتح في الزمان الأموي لشرعنة عمل خلفاء بني أمية بل انّه امتد ليصل إلى جذور هذه الخلافة واستطاع أن يقتحم جميع العقبات فبرر للسابقين كي يعبد الطريق للاحقين فراح يبرر لمن وقف في وجه رسول الله وعارضه في المواقف المصيرية، ولأجل ذلك فلا مانع في مدرسة التأويل والتبرير أن ينزل الرسول من منصب الرسالة ويتحول إلى إنسان مجتهد يصيب ويخطأ وللآخرين الحق في أن يعارضه فيصيبوا في معارضتهم له أو يخطأوا.

يقول السيد مرتضى العسكري: «كان رسول الله ﷺ أول من وصِفَ في مدرسة الخلفاء بالاجتهاد كما في قصة بعث أسامة» وبعد أن يذكر قصة بعث أسامة وتأكيد الرسول على الصحابة أن يخرجوا مع أسامة التي جاءت في مصادر عدة كطبقات ابن سعد وأنساب الأشراف وعيون الأثر، ثم يقول: «وقد انتقدوا

(١) تاريخ الطبري، محمد بن جرير: ج٦، ص٣٣٤، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٨م.

الخليفتين على تخلفهما عن بعث أسامة فكان ما اعتذروا عنهما ما مرّ من قولهم إنه كان يبعث السرايا عن اجتهاد وعلى هذا فيجوز مخالفة أوامر الرسول في السرايا باجتهاد من الصحابة المجتهدين[1]!

ولم يسلم من عدوى الميكافيلية وفقه التبرير للسلطان حتى فيلسوف التاريخ الكبير ابن خلدون. حيث كان مرجواً من مثل هذا المفكر الكبير عندما يستدعى للحكم بين علي ومعاوية أن يحكم بالموازين القرآنية والسنن التاريخية المستنبطة من الأدلة القطعية العقلية والشرعية. لا أن يكون الاجتهاد من أجل حفظ السلطة هو الميزان للحكم الذي يبرئ المتصارعين على السلطة ويبرر عملهم حتى وإن كان مؤدياً إلى سفك دماء آلاف من الناس.

يقول ابن خلدون: «ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية، كان طريقه فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد وإنما اختلف اجتهادهم في الحقّ وسفّه كلّ واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب علياً، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل وإنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حقّ ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية»[2]!!

وبنفس ميزان اقتضاء العصبية أي قوة الحكم والمحافظة على السلطة يبرر

---

(١) مقدمة مرآة العقول في شرح أخبار الرسول مرتضى العسكري: ج١، ص٥٧، دار الكتب الإسلامية.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ص١٩٨، دار الكتاب العربي.

ابن خلدون مخالفة معاوية لاتفاقه مع الإمام الحسن عليه السلام وعهده بالخلافة إلى يزيد فيقول: «وكذلك عهده إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمـة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه»[1].

وكم عانت الإنسانية من فكر تقديس السلطة والفلسفة الميكافيلية في طول تاريخها.

فقد مهد فقه التبرير لكل من يصل إلى السلطة الطريق لحروب التأويل وفتحت الباب لوصول يزيد إلى السلطة ليقتل الحسين ويسبي نساءه وهن نساء الرسالة والإمامة. وليستبيح المدينة ويغرق مسجد المدينة بدماء المهاجرين والأنصار وعلى هذا المنوال واصلت الإنسانية مسيرتها تنهشها أنياب السلطة من يزيد إلى الحجاج ومن الحجاج إلى السفاح ومنه إلى المأمون والأمين والمتوكل ومنهم إلى عبدالله المؤمن (صدام)! الذي أهلك العباد وخرّب البلاد من أجل أن يوسع سلطته أمتاراً في النهر أو التلال الحدودية. وأما ما فعله الفكر الميكافيلي الغربي بالشعوب الضعيفة فهو من نوع الجرائم المنظمة والمنمّقة فاحتلال ونهب الثروات باسم الاستعمار وقصف وقتل وتشريد باسم حقوق الإنسان ومؤامرات وانقلابات واغتيالات باسم الثورة والتحرير وحرب ثقافية وخلقية باسم العولمة وزرع غدة إسرائيل في قلب الأُمّة والدفاع عنها بكل السبل. وستون عاماً والجرح الفلسطيني ينزف وإذا ما أفاقت عصبة الأمم يوماً من نومتها ورفعت يدها لتمسح الجراح عن أطفال فلسطين وشيوخها صفع أيديهم سوط الفيتو الأمريكي كي لا يجدوا لهم خياراً إلا العودة إلى النوم. هذا هو حال الإنسانية اليوم وهكذا كان حالها بالأمس.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٩٩.

ولن يصلح حال الإنسان باستبدال الأشخاص والأحزاب ولا حتى العناوين والشعارات وإنما تحتاج إلى استبدال الفكر والثقافة. إن حضارة الإنسانية اليوم تستغيث من سياط الفلسفة الميكافيلية وفقه التبرير والتقديس للسلطات والحكومات.

ولن يبزغ عليها فجر الخلاص إلا إذا تركت ميكافيلي وجاءت إلى علي كي يعلمها بالقول والعمل وبالصورة والسيرة. إن السلطة ما هي إلا وسيلة لأجل بناء صرح الأخلاق الإنسانية. وإذا كانت الحضارة الغربية تسمح لنفسها من أجل أن توسع رقعة سلطتها بإضافة جزء من الأرض أن تقتل الأمم والشعوب الأخرى بأسلحتها النووية وقنابلها العنقودية والجرثومية كما تقتل الحشرات والديدان كما فعلت في هيروشيما وناكازاكي وفيتنام وفلسطين. فإن علياً إمام الإنسانية يأبى أن يقبل سلطة لا على جزء من الأرض ولا على الأرض بأسرها بل على المجموعة الكونية كلها إذا كان ثمن هذه السلطة هو ظلم حيوان صغير كالنملة ناهيك عن ظلم فرد من أفراد البشرية فافتحي أيتها الإنسانية أذنيك وأصغي لما يقوله علي: «**وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ اَلأقَالِيمَ اَلسَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ...**»[1].

وتتوالى النصائح على علي بأن يغير شيئاً من طريقته في التسوية في العطاء ويتنازل عن نهجه العادل من أجل الحفاظ على دولته فيقول: «**أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ اَلنَّصْرَ بِالْـجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ وَاللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي اَلسَّمَاءِ نَجْماً وَلَوْ كَانَ اَلْـمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا اَلْـمَالُ مَالُ اللهِ**»[2].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢٦.

لقد كان علي حقاً أمين الله في أرضه وخليفته في عباده، ولقد كان الإنسان الكامل الذي تجلت فيه صفات الله وهام في صفات الرأفة والرحمة بالضعفاء والعدل بين العباد، وإذا كان عبّاد الملك والسلطان لا يعرفون أخاً ولا ولداً ولا ذا رحم ولا صديق من أجل بقاء ملكهم وسلطانهم فإن علياً لا يعرف في العدل بين الناس ومقارعة الظالمين والطغاة أحداً إلا الله. انظر إلى قصته مع أخيه عقيل وقد جاءه يلتمس منه أن يزيده على عطائه صاعاً من الطعام لإطعام أولاده الجياع فيقول: «**فَأَصْغَيْتُ إليه سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقِي فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيْسَمِهَا فَقُلْتُ لَهُ ثَكِلَتْكَ اَلثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَ تَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إنسانهَا لِلَعِبِهِ وَتَجُرُّنِي إلى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ أَتَئِنُّ مِنَ اَلأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظَى**»[1].

لقد كان بإمكان علي أن يشيد أركان سلطان دولته بالمكر والخداع كما كان يفعل معاوية وأمثاله، وكان يستطيع أن يملأ أفواه المعترضين والناقدين بالهبات والصلات، فيحوّل ذلاقة ألسنتهم من الشتم والهجاء إلى المدح والإطراء، ولو أنه جعل بريق الذهب والفضة يلمع في عيون من شهروا السيوف عليه لشلّت أيديهم بالأشعة الصفراء ولرجعت السيوف إلى إغمادها ولو كان يقمع كلّ من يعارض سياسته بالنار والحديد ويقتل على الظنّ والتهمة ومطلق التقارير... لكان يمكن لعلّي أن يمدّد مدة حكمه إلى سنوات أُخرى ولكن علياً لم يأتِ ليحقّق السلطة وإنّما جاء ليسلّط الحق...

لم يأتِ علي ليبني حكومة على الأبدان، ويتحكم وسط جدران الحرس

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٢٤.

والأعوان وحواجز الهيبة المصطنعة ليتمتع بأمرة وسلطة يتطعمها برهة ثم يلفظها دفعة وجملة.

أراد علي أن يؤسس حكومة على قلوب الجماهير لا في زمانه فحسب بل لجميع الأجيال القادمة في عمود الزمان وإذا كان علي يقول: «**إن الرعية لا تصلح إلا بصلاح الرعاة**»[1] فإنّه لم يضع برنامجاً لدولته ليصلح رعيته الذين عاصروه فقط ولو كان كذلك لأمكن أن يقال إنّ برنامجه لم يؤت أكله لأنه كان يشكو كثيراً من نوع رعيته إلى آخر حياته. بل إنّ علياً عندما بويع للخلافة لم يضع خطة خمسية ولا عشرية للتنمية والإعمار وإنما وضع خطة دهرية وسرمدية للتنمية والإعمار في جميع مجالات الإنسانية، وكان يعلم أن نهجه هذا سوف يربح الدولة وإن خسر الجولة.

لقد أراد علي أن يكتب للإنسانية في سنوات حكمه التي لم تبلغ الخمس إن السلطة التي تؤخذ بالمكر والخداع والميكافيلية إنما هي سلطة غثاء وفقاع وزبد وسوف تذهب جفاء والسلطة التي تنفع الناس وتمكث في الأرض فهي سلطة الحق في الهدف والوسيلة... وكان علي يعلم بأن البشرية سوف تعود متعبة من نهج معاوية وميكافيلي وسوف تكتشف البشرية نفسها إنها كانت تعدو خلف حضارة السراب التي لم يكن فيها من الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان سوى الأوهام وعندها سوف تبحث الإنسانية عن الحياة التي لن تجدها إلا في نهج علي وسوف تعود إليه وتقول: (ذلك ما كنا نبغ) وتستقر قافلة الإنسانية في نهاية المطاف وقيماً يسمى بنهاية التاريخ في حضن الولاية العلوية لا في الشيوعية اللينينية ولا في ليبرالية فوكوياما.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢١٦.

وسوف يسقط وهم العولمة أمام السلطة العلوية وإذا كنَّ بنات الملوك السلاطين والخلفاء أميرات يتقلّبن في النعيم والذهب والحرير، فإنّ علياً يمنع ابنته حتى من استعارة عقد لؤلؤ من بيت المال، فينتزعه من رقبتها مع إنّها قد أخذته من علي بن أبي رافع خازن بيت المال، عارية مضمونة لمدة ثلاثة أيام لأجل عيد الأضحى... ويقول لخازنه: أتخون المسلمين ردّه من يومك وإياك أن تعود فتنالك عقوبتي ولو كانت ابنتي قد أخذت العقد على غير العارية المضمونة لكانت أول هاشمية قطعت يدها على سرقة. ثمّ يقول لابنته: يا بنت علي بن أبي طالب لا تذهبن بنفسك عن الحق. أكل نساء المهاجرين يتزيّن في هذا العيد بمثل هذا[1].

لقد كان علي أقدر الناس على التبرير والشرعنة من أجل أن يغدق على أهل بيته وأرحامه بالعطاء وكان يمكنه أن يكون أدهى العرب في الاحتيال واللف والدوران وابتكار الأساليب التي يمدد بها مدة حكمه إلى بضع سنين أو يوسع رقعته بمزيد من الولايات... ولكن هيهات لعلي أن يسعى إلى سلطة تقوم على الغدر والخداع أو أن يضيف إلى حكومته عدد سنين وبضع مساحات من الأرض بواسطة الأساليب الملتوية على الرغم من أنه أقدر الناس عليها فهو القائل: «**وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ اِتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ اَلْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أهل اَلْـجَهْلِ فِيهِ إلى حُسْنِ اَلْحِيلَةِ مَا لَـهُمْ قَاتَلَهُمُ الله قَدْ يَرَى اَلْـحُوَّلُ اَلْقُلَّبُ وَجْهَ اَلْحِيلَةِ وَدُونَهُ مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ الله وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ اَلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا حَرِيجَةَ لَهُ فِي اَلدِّينِ**»[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب ج١ ص٣٧٥.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٤١.

لقد كان اتباع أساليب الغدر للوصول إلى السلطة يسمى (كياسة) واليوم تسميه الدول العظمى المتحكمة في العالم سياسة ولكن علياً يسميه جهلاً بعواقب الأمور... وقد أثبتت الأيام وسوف تثبت أكثر أن النهج العلوي هو المنتصر في نهاية المطاف أن علياً وكما وصفه ضرار بن ضمرة الضبابي أمام معاوية كان حقاً: «بعيد المدى شديد القوى».

لواقح الكبر

(التنمية الاخلاقية):

لم يصبح فرعون فرعوناً في ليلة واحدة ولا الحجاج حجاجاً ولا صدام صداماً... إنما هي عوامل كثيرة أدت إلى إصابة هؤلاء وأمثاله من الطغاة بأخبث داء يصيب الإنسانية ألا وهو داء الكبر والعظمة.

وإذا كان أطباء الأبدان ومراكز البحث والتحقيق لا تكل عن الدراسة والبحث والتحقيق من أجل كشف أسباب الأمراض التي تصيب بدن الإنسان. وإذا ما توصل معهد بحثي أو عالم أو طبيب إلى كشف ما أو نظرية معينة عدّ ذلك فتحاً واستحق صاحبه أن يخلد في لوح التاريخ بأحرف من ذهب فهذا عالم الأحياء الفرنسي المعروف (لويس باستير١٨٢٢ـ ١٨٩٥) قد استطاع أن يكشف بتجاربه العديدة إن الكائنات الدقيقة هي التي سماها (جراثيم أو ميكروبات) هي المسؤولة عن الأمراض ودعا إلى استخدام المضادات لوقاية الإنسان من المرض، واكتشف طريقة لتعقيم الحليب وذلك لقتل الجراثيم والميكروبات الموجودة فيه وقد سميت عملية التعقيم هذه في كل العالم بالبسترة تخليداً لهذا العالم الكبير الذي وفر اكتشافه صحة لملايين البشر. فإذا كان باستير قد اكتشف

لنا الميكروبات التي تسبب الأمراض لجسم الإنسان، فإن علياً عليه السلام قد اكتشف لنا ميكروبات الإنسانية والجراثيم التي ما برحت تدمر الحضارة البشرية وقد سماها علي في خطبته القاصعة التي قصع فيها المستكبرين وصعق فيها المتعصبين (لواقح الكبر) فقال: «**فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ اَلأَمَمَ اَلْـمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ الله وَصَوْلاتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ وَاسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ لَوَاقِحِ اَلْكِبْرِ كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ اَلدَّهْرِ**»[1].

إنّ النهج العلوي في بناء الإنسانية يقدم لنا كشفاً مهماً في وقاية الإنسانية... من أخطر أمراضها... وكما ان الإنسان يقي نفسه من الجراثيم والبكتريا الضارة ومن البرد والحر والحوادث فإنّ عليه أن يستعيذ ويقي روحه ونفسه من لواقح الكبر... فإذا كانت الجراثيم المنتشرة في الهواء تدخل إلى جوفه فتسبب له الزكام والأنفلونزا أو الأورام والالتهابات... فإنّ هناك ذرات من الشعور يواجهها الإنسان في حياته إذا لم يحسن التعامل معها فإنّه سوف يصاب بالورم والالتهاب في داخل إنسانيته وسوف ينتفخ بداء الكبر فيَهلك ويُهلك.

ما هي لواقح الكبر:

الإنسان موجود مستعد للحركة باتجاهين مختلفين وهذا هو التقويم الأحسن الذي خلق في الإنسان ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين: ٤) وهو الاستعداد للحركة باختياره صوب الأجر غير الممنون والدرجات اللامتناهية وكذلك الحركة باختياره نحو أسفل سافلين.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

والطريق نحو الكمال المطلق هو طريق التزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩).

والطريق نحو التسافل هو طريق سحق الفطرة الإنسانية ودفنها وتدسيتها بتراب الأهواء ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠).

والذي يسير في طريق التزكية فإنّه يرفع شعار الأنبياء والأولياء ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (الأعلى: ١٤) والذي يسير في طريق الطغيان والأهواء فإنّه يرفع شعار فرعون والفراعنة وهو ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (طه: ٦٤).

وفي النفس الإنسانية جانبان: أحدهما جانب التزكية والآخر جانب الاستعلاء.

وفي كل جانب توجد نطف وبذور ونوى تنتظر اللقاح والتفعيل... وعلى الإنسان أن يولد شخصيته باختيار لقاحها. فالأبوان يقومان بتخصيب الحيمن والبويضة فيولدّان أجسامنا وذكوريتنا وأنوثتنا ولكن ولادة الشخصية تتم بواسطة الإنسان نفسه عندما يلقح استعداده بنوع اللقاح الذي يختاره من ذرات شعوره وسلوكه.

وهنا يجب أن تحط مؤسسات التربية والتعليم وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس التربوي رحالها لتنهل من شريعة نهج البلاغة وتضع للناشئة برنامجاً تعليمياً وتربوياً يجعلهم يختارون لقاحات التواضع والمحبة واحترام الإنسانية ويستعيذوا من لواقح الكبر والعصبية والاستعلاء على الآخرين... ولواقح الكبر هي الاستجابة لأحاديث النفس الناشئة من نزعة الاستعلاء والتي يمكن أن تظهر في الأُمور التالية:

١ ـ طريقة المشي وحركة الأقدام:

فهناك طريقة من المشي ورفع للأقدام تحكي عن أن صاحبها غارق في الخيال وكأنه يطير في الهواء بحيث عندما يضع قدمه كأنه بعيد عن الأرض وهذه هي مشية الاختيال وصاحبها مختال، وقد نهى القرآن الكريم عنها في قوله تعالى عن لسان لقمان الحكيم وهو ينصح ابنه ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ (لقمان: ١٨).

٢ ـ لحن القول وطريقة الكلام:

فالبعض عندما يريد أن يتكلم يحاول أن يميز نفسه عن الآخر فلا يخرج الحروف من مخارجها الطبيعية فيتحدث وكأن الحروف تخرج من أنفه حتى كأن لسانه يتحول من فمه إلى أنفه والسبب في ذلك انّ أنفه قد امتلأ من ريح الشيطان كما وصف أمير المؤمنين فقال: «**وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى اِبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ اَلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ اَلْحَسَدِ وَقَدَحَتِ اَلْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ اَلْغَضَبِ وَنَفَخَ اَلشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ اَلْكِبْرِ اَلَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ اَلنَّدَامَةَ**»[1].

ووصف القرآن المنافقين فقال: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**﴾ (محمد: ٣٠). ونهى النساء عن ترقيق الكلام والتغنج به لأنه يؤدّي إلى طمع مرضى القلوب لأنهم يفهمون من ذلك أنّ المرأة تريد أن تظهر نفسها للآخرين ويشمون من خضوع القول رائحة المراودة عن طريق هذا الأسلوب ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً**﴾ (الأحزاب: ٣٢).

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

٣ ـ النظرة إلى الناس:

يظهر البعض شعوره بالاستعلاء على الآخرين عن طريق نظرته الازدرائية والاحتقارية للناس فهو يبخل بفتح عينه عندما ينظر إلى الناس وكأنهم لا يستحقون منه النظر إليهم. وقد تحدث القرآن عن قوم نوح أنهم طلبوا منه أن يطرد عنه الفقراء والضعفاء وكانوا ينظرون لهم بعين الاستصغار فقال لهم النبي نوح عليه السلام ﴿**وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذا لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (هود: ٣١).

٤ ـ مكان الجلوس:

ومن علامات نزعة الاستعلاء هي انّ الإنسان عندما يدخل إلى مجلس يحب أن يجلس في وسط المجلس أو المكان المحترم ولا يهتمّ إذا ما اختل نظم الجلسة، وانقطع حديث الجالسين أو الدرس أو المحاضرة، وهناك أحاديث حول النهي عن إلجاء الجالسين إلى القيام وشقّ المجلس إلى وسطه، وكذلك استحباب أن يجلس إذا ورد على قوم حيث انتهى المجلس عن الإمام الصادق: «**إنّ من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس وأن تسلّم على من تلقى**»[1].

٥ ـ السلام على الناس:

من علامة التكبر هي انه يصعب عليه أن يبتدئ الناس بالسلام بل يريد أن الناس دائماً هم الذين يبتدأونه بالسلام... وإذا ما سلموا عليه فإنّه لا يجيبهم الجواب الكامل وقد جاء في صفة رسول الإنسانية صلى الله عليه وآله انه يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ويسلّم على كلّ من استقبله من صغير أو كبير أسود أو

(١) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي: ج١، ص٣٥٥، مؤسسة اسماعيليان.

أحمر حر أو عبد[1].

٦ ـ تناول الطعام:

البعض تحدّثه نفسه انه إذا أكل مع من هم دونه في العمر أو المال أو العناوين العرفية والإدارية فهذا نوع من الذل أو العمل الذي لا يناسب شأنه. والحق أنّ العزة الحقيقية في الرفق بأمثال هؤلاء وخدمتهم والأكل معهم ومؤانستهم... وقد روي انّ الإمام الرضا كان إذا بسط المائدة يدعو إليها جميع غلمانه ومواليه من السودان وغيرهم فقال له أحد أصحابه لو عزلت لهؤلاء مائدة فقال عليه السلام: «**انّ الرب تعالى واحد والدين واحد والأم واحدة والأب واحد والجزاء بالأعمال**»[2].

٧ ـ طريقة التفكير:

وهي من أهمّ لواقح الكبر حيث يرى الإنسان نفسه خير من الآخرين بعنوان أو نسب أو شهادة علمية أو مقام عبادي أو مظهر جميل وأمثال ذلك ويرتّب على ذلك الأثر العملي في عدم التعامل مع الآخرين وفق الموازين الإنسانية فيستنكف أن يخدمهم أو يمنّ عليهم أو يرغب في أن يكون هو المخدوم والمحترم والمحبوب من قبلهم دون العكس، وهذا هو داء إبليس الذي حذر منه أميرالمؤمنين كثيراً في خطبته القاصعة حيث يقول عن إبليس انه لم يمتثل أمر الله سبحانه بالسجود لآدم خليفة الله في أرضه لأنه «**اِعْتَرَضَتْهُ اَلْـحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ فَعَدُوُّ الله إِمَامُ اَلْـمُتَعَصِّبِينَ وَسَلَفُ اَلْـمُسْتَكْبِرِينَ اَلَّذِي**

(١) جامع السعادات: ج١، ص٣٥٨.
(٢) الكافي الكليني ج٨ ص٢٢٩ .

وَضَعَ أَسَاسَ اَلْعَصَبِيَّةِ وَنَازَعَ الله رِدَاءَ اَلْـجَبَرِيَّةِ وَادَّرَعَ لِبَاسَ اَلتَّعَزُّزِ وَخَلَعَ قِنَاعَ اَلتَّذَلُّلِ أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ الله بِتَكَبُّرِهِ وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ فَجَعَلَهُ فِي اَلدُّنْيَا مَدْحُوراً وَأَعَدَّ لَهُ فِي اَلآخِرَةِ سَعِيراً»(١).

إلى ان يقول: **«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الله بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ اَلطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ اَلْـجَهِيدَ وَكَانَ قَدْ عَبَدَ الله سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ لاَ يُدْرَى أَ مِنْ سِنِي اَلدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي اَلآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»**(٢).

ثم يقول عليه السلام: **«فَاحْذَرُوا عِبَادَ الله عَدُوَّ الله أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ»**(٣).

إنّ الآفة التي تهدّد البشرية اليوم هي آفة الاستكبار، والنهج التربوي العلوي يضع يده على بويضات هذه الآفة ولقاحها... ويقول إنّ داء إبليس هو التفاخر بالخلق والتعصب للأهل الذي يدعو الإنسان أن يتعامل مع غيره من الأمم والأفراد بمنطق أنه خير منهم.

هذا هو المنطق الذي يحكم عالم اليوم.

إننا نعيش في عالم يريد فيه أصحاب البشرة البيضاء والشعر الأشقر والعيون الزرقاء أن يتحكموا بمصير غيرهم.

خمس دول تستأثر كل واحدة منهن بقرار الشعوب الأخرى بواسطة حق النقض (الفيتو).

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

هذا يعني أنّ هؤلاء سادة العالم وسائر الناس كالعبيد... هم الذين يقرّرون والآخرون يجب أن يكونوا تابعين وهم الذين يمانعون ويعترضون والآخرون يجب أن يكونوا طائعين مستسلمين.

العالم كلّه رأى بعينه ويرى ما جرى ويجري من قتل ودمار على يد الصهاينة في فلسطين.

ولكن مجلس أمن العالم لا يستطيع أن يقدم لهؤلاء الذين يعيشون منذ سنين حياة الخوف والرعب والهلع... أمناً ولو بمقدار الاستنكار والإدانة لأن سيف الفيتو الأمريكى مشرع في وجه من يعترض على شعب الله المختار.

إنّ العالم اليوم مقسّم بشكلٍ صريح وبغير حياء إلى عالم أوّل وثانٍ وثالث والعالم الأول يسلب الثاني والثالث حقّ القرار ويستطيع أن يسلبها حقّها بالاستقلال وحقّ تقرير المصير بالاحتلال والهيمنه والوصاية كما فعلت أمريكا في أفغانستان والعراق ودول أخرى.

وإذا ما أراد شعب أن يتحرّر من هذه الهيمنة ويمتلك الكفاءة والصناعات الأساسية والطاقة النووية، فإنّه سوف يواجه أنواع المؤامرات من الحصار والحروب والاستهداف لثقافته وعقوله والحضارة الغربية اليوم هي حضارة الصناعة والسلام قائمة على هذا الشرخ الكبير.

ولكي يبقى الغرب على حضارته... يجب أن يبقى الغرب معملاً للانتاج وترسانة للسلاح ويبقى العالم الثالث مائدة للاستهلاك وميداناً للحروب وتصريف وتجريب السلاح ويجب أن يتجه الذهب الأسود من آسيا والذهب الأصفر من أفريقيا ومن أوربا تتجه البضائع والسلاح وثقافة الميوعة والتخدير والاستهلاك.

الغربي ينتج ويتحكم ويترفه والشرقي يجب أن يأكل ويلهو ويسكت حتي يموت والاُ فيقتل ويدمر...!!!

وإذا كانت نتيجه هذه المعادلة أن النفط العربي يذهب ليصنع رفاهاً وترفاً لقطط وكلاب أمريكا والسلاح الأمريكي يأتي ليصنع قتلاً ورعباً وجوعاً لأطفال غزة والصومال وكابل وبغداد ودمشق... .فلا ضير في ذلك.

فمنطق الاستكبار لا يأبى أن تكون القطط الأمريكية خيراً من الإنسان الصومالي والفلسطيني والعراقى.

وهذا هو الذي يشهد به واقع حضارة العصر التي يقودها الغرب... فالقطط والكلاب الفرنجية تشكو من التخمة والأطفال الأفريقية والآسيوية تموت من سوء التغذية في كل يوم.

فمن يا ترى يستطيع أن ينزع من هذا العالم فتيل الاستكبار كي لا يحترق بما فيه بحرب عالمية أخرى لا تبقى ولا تذر.

انه النهج العلوي لا غير...

إنه باب العلم النبوي الإلهي...

الرحمة الإلهية المهداة للبشرية أهديت من السماء... فلم تتقبلها الأرض بسبب الاستكبار.

نهج علي يعلم البشرية ويربيها... لترفع راية (قد أفلح من تزكى) وتنبذ شعار (قد أفلح من استعلى).

وعندما تأتي التزكية وتحل محل الاستعلاء...

فإن النفس الزاكيه تهفو نحو العطاء والخدمة للإنسان الآخر بما أنه إنسان... وهكذا كان علي في قمة سلطته وإمارته وسياسته...

إذا كانت الحضارة الغربية تشبع قططها وكلابها على حساب ملايين الجائعين في أصقاع الأرض.

فإن علياً يقول: «وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ اَلطَّرِيقَ إلى مُصَفَّى هَذَا اَلْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا اَلْقَمْحِ وَنَسَائِجِ هَذَا اَلْقَزِّ وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشَعِي إلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أو اَلْيَمَامَةِ مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِي اَلْقُرْصِ وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ أو أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى أو أَكُونَ كَمَا قَالَ اَلْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلى اَلْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أميرالمؤمنين وَلاَ أُشَارِكَهُمْ فِي مَكَارِهِ اَلدَّهْرِ أو أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ اَلْعَيْشِ»[1] ...

نهج علي يحول التفاخر والتعصب من التعصب للون والأصل والمال إلى «فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ اَلْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ اَلْخِصَالِ وَمَحَامِدِ أَفْعَالِ وَمَحَاسِنِ الأُمور اَلَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا اَلْمُجَدَاءُ وَاَلنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ اَلْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ اَلْقَبَائِلِ بِالأَخْلاَقِ اَلرَّغِيبَةِ وَاَلأَحْلاَمِ اَلْعَظِيمَةِ وَاَلأَخْطَارِ اَلْجَلِيلَةِ وَاَلآثَارِ اَلْمَحْمُودَةِ فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ اَلْحَمْدِ مِنَ اَلْحِفْظِ لِلْجِوَارِ وَاَلْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ وَاَلطَّاعَةِ لِلْبِرِّ وَاَلْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ وَاَلأَخْذِ بِالْفَضْلِ وَاَلْكَفِّ عَنِ اَلْبَغْيِ وَاَلأَعْظَامِ لِلْقَتْلِ وَاَلأَنْصَافِ لِلْخَلْقِ وَاَلْكَظْمِ لِلْغَيْظِ وَاِجْتِنَابِ اَلْفَسَادِ فِي اَلأَرْضِ»[2].

ومن يتخرج من هذا النهج سوف يتلذذ بالعطاء والفضائل الإنسانية والمواساة...

---

(١) كتاب الامام علي عليه السلام إلى عثمان بن حنيف.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

فهذا علي يطعم الطعام على حبه وهو في أشد الحاجة إليه... يقدم طعامه وطعام أهله وأطفاله إلى اليتيم يوماً وإلى المسكين يوماً آخر وإلى الأسير في اليوم الثالث والأسير لم يكن بالنسبة إلى علي إلا نظيراً في الخلق.

لكن النفس العلوية تأبى أن تشبع ونظيرها في الخلق جائع... بل يكون شبعها الحقيقي ان يجوع هو وعياله من أجل أن يشبع الآخرون حتى وإن كانوا أصحاب دين آخر!... وحتى فضة الخادمة قد شاركت سادتها في كتابة هذا الدرس الخالد في الإيثار والتضحية فاختارت لذة المواساة على لذة الطعام...

وهذا دأب من يتربى على المنهج العلوي... أي يرتفع شعوره الإنساني فيعلو على كل شعور آخر.

ذلك عندما يبتعد الإنسان في المدرسة العلوية عن لواقح الكبر والاستعلاء... عندها يتبدل الاستكبار بالإيثار والاستخدام بحب الخدمة ويستبدل كل إنسان الشعار الذي يرفعه في مقابل الآخر من (أنا خير منك) إلى (أنا خادم لك).

فيا أيها البحاثون عن حضارة الإنسان، إنها الحضارة التي يمسك بمفاصلها أفراد يتعاملون مع كل الناس بما انهم إخوة في الدين أو نظراء في الخلق.

تعالوا إلى نهج علي كي يصنع لنا هذه الحضارة.

وإذا كنا لا نقدم للأطفال والتلاميذ في المدارس والجامعات والمعاهد إلا الطعام المعقم والحليب المبستر وقاية لهم من التهاب الأجسام ولأجل أن تحميهم من الميكروبات المسببة للأمراض التي اكتشفها لنا لويس باستر...

فان علياً قد اكتشف لنا ما هو أشد فتكاً بالإنسانية جمعاء، قد اكتشف لنا الميكروبات التي ما برحت تدمر البشرية بالحروب والهيمنة والاحتلال وكثير من النزاعات والفتن وتكرس الحرمان والفقر والتفاوت الطبقي المقيت...

انها الميكروبات التي تسبب التهاب الأنفس وانتفاخها انها لواقح الكبر التي أمرنا علي أن نحمي أنفسنا منها كما نحتمي من حوادث الدهر.

تعالوا لنقدم لأجيالنا وطلاب جامعاتنا ومدارسنا إلى جنب الحليب المبستر الفكر العلوي.

ونلقحهم من نهج البلاغة أمصالاً تمنحهم المناعة من أمراض الكبر والاستعلاء والعنصرية.

فإذا ما جعلنا مؤسساتنا العلمية والتربوية تسير وفق البرنامج العلوي في تغذية العقول وتطعيم النفوس فإنّنا سوف نخرج إلى ميادين السياسة والإدارة والاقتصاد والتعليم جيلاً يحمل المواصفات العلوية.

عمارة الأرض

(التنمية الاقتصادية):

«وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ اَلأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اِسْتِجْلاَبِ اَلْـخَرَاجِ لأَنَّ ذَلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ وَمَنْ طَلَبَ اَلْـخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ اَلْبِلاَدَ وَأَهْلَكَ اَلْعِبَادَ وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلّا قَلِيلاً»(١).

الإسلام دين يصنع الحياة ولا حياة بغير اقتصاد؛ ولذلك فقد تصدى الإسلام إلى مسائل الاقتصاد والعدالة الاجتماعية بقوة قد تكون أكثر حتى من جانب العبادات بمعناها الأخص فلم نر في القرآن آية تجعل ترك الصلاة لوحدها تكذيباً بالدين ولكنا نرى القرآن يقول: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْـمِسْكِينِ**﴾ (الماعون: ١ ـ ٣).

فالمجتمع الذي لا يكرم فيه اليتيم وليس فيه مؤسسات تحث وتعمل على إزالة الجوع والفقر والمسكنة مثل هذ المجتمع مكذب بالدين وان كثرت فيه المنائر والقباب وزاول أهله الشعائر والطقوس.

---

(١) نهج البلاغة – كتاب الامام علي عليه السلام إلى مالك الاشتر ٥٣.

ولذلك تؤكد الآيات التالية للآيات المذكورة هذا المعنى فتقول: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ (الماعون: ٤ ـ ٧).

أي إن صلاة مثل هذا المجتمع صلاة مظاهر واستعراض لعضلات النسك والتعبد الأجوف، صلاة لا تقترن بتحقيق أهدافها في إصلاح المجتمع.

وأهم برنامج إصلاحي هو المنهج الاقتصادي في الانتاج الصحيح والتوزيع العادل الذي يجعل ماعون الثروة يصل إلى جميع المحتاجين، مثل هذه الصلاة ليست فقط لا تعود على أصحابها بالمغفرة والرحمة بل انها مدعاة للويل والثبور.

وأعطى القرآن تعريفاً للمشركين بعد أن هددهم بالعذاب فقال: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إليه وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ (فصلت: ٦ ـ ٧).

ولعلّ أشدّ لهجة في النهي استعملها القرآن هي التي وردت في تحريم الربا وهو عملية الإثراء بالنقد بعيداً عن العمل الإنتاجي والذي يؤدّي إلى نشوء طبقتين إحداهما متخمة بالثروة بدون عمل ومخاطرة وإنتاج، وأُخرى مثقلة بالديون وعد القرآن هذا النوع من التعامل حرباً مع الله ورسوله.

ولا نرى القرآن يفصل في أحكام الصلاة ويوكل تفاصيلها إلى النبي الأكرم. لكنه نزل أطول آية (سورة البقرة ٤٨) في الأمر بكتابة الدين وتوثيقه والاستشهاد على الدين والبيع ليؤكد على ضرورة الشفافية التامة في إبرام المعاملات الاقتصادية...

وترسم آيات القرآن الكريم ملامح المذهب الاقتصادي الإسلامي في كثير من الآيات فتقول بأن الإنسان أمين الله وخليفته في الأموال التي يحصل عليها عن طريق الكسب المشروع ﴿**آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَـهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ (الحديد: ٧).

وينبّه القرآن الكريم إلى حقيقة مهمة في الأموال وهي أنّها قوام للمجتمع وإنها كالعمود الفقري الذي يقوم عليه جسم المجتمع فهي بوجودها المجموعي ملك لمجموع المجتمع ولذلك ينهى القرآن الأُمّة أن تترك الأموال بيد من يبذرها ويضيعها ويتصرف بها تصرفاً سفيهاً يؤدي إلى ضعف الاقتصاد أو إنهياره ومن ثم يؤدي إلى تحطم العمود الفقري للأمة ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**﴾ (النساء: ٥).

ويمنع القرآن بشدة تجميد الأموال بواسطة الإكتناز أو الاحتكار فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤) ويأمر بدوران الأموال في كل عروق جسم المجتمع وإنها كالدم الذي يجب أن يصل إلى جميع خلايا الجسم الاجتماعي ويقول: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

وينهى عن أي نوع من المعاملة لا تعود بالمنفعة على المجتمع وأي تعامل تجاري قائم على الباطل وعدم إرضاء الأطراف المشتركة فيه فيقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً** ﴾ (النساء: ٢٩)، ويصرح القرآن الكريم بأن ثروات الطبيعة كافية لإشباع جميع حاجات البشرية بشرط الاستثمار الصحيح والتوزيع العادل قال تعالى: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا**

﴿ **تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، والظلم يعني سوء التوزيع وعدم توفير هذه النعم لأفراد الجماعة البشرية على سواء وهو ظلم بعض أفراد المجتمع على البعض الآخر وكفران النعمة يعني تقصير الجماعة البشرية في إستثمار ما حباها الله به من طاقات الكون وخيراته المتنوعة فالخلافة الإنسانية لله سبحانه في الأرض توفر السعادة والرفاه للبشرية بتوفير جميع ما يحتاجه بني الإنسان إذا قامت البشرية بأداء مسؤليتها بين يدي الله سبحانه وتعالى في أمرين:

إحداهما: العدل في توزيع الثروة، فلا يقع أي تصرف في الثروات قد يتعارض مع الخلافة الإلهية.

الآخر: العدل في رعاية الثروة وتنميتها وذلك ببذل الجماعة طاقاتها في إستثمار الكون وإعمار الأرض وتوفير النعم وبعد هذه اللقطات القرآنية عن الاقتصاد الإسلامي نأتي إلى نهج البلاغة العلوية الذي هو التفسير والبيان والتطبيق الذي به تتبلور آيات القرآن ومفرداتها وتتشكل الأنظمة التي تدير ميادين الحياة.

وهذا هو معنى التلاحم وعدم الافتراق بين القرآن والعترة الذي أوصى النبي صلى الله عليه وآله الأُمّة التمسك به كي تهتدي إلى النور والسعادة ولا تقع في التيه والظلال. فلا قرآن بغير عترة ولا عترة بغير قرآن ولا هداية إلا بهما فتعالوا إلى كلام علي في عهده إلى مالك الأشتر وذلك العهد الذي لم يتح لمالك أن يطبقه على الأرض لأن استخبارات معاوية اعترضت مالكاً في طريقه إلى مصر واغتالته بطريقة غادرة وجبانة... تأباها أدنى القيم الإنسانية والعربية ولكن الإمبراطورية المعاوية اعتبرتها في حينها نصراً إسلامياً كبيراً.

لم يطبق هذا العهد والمنشور الإلهي في مصر ولكن هذا العهد لم يكن

قرطاساً ومداداً حتى يعفى مع الزمن وإنما كان ومضات من النور حطمت قيود الحبر والورق والزمن وارتسمت على قلوب الأحرار والباحثين عن الحقيقة وعندما ينظر الناظر إلى هذا العهد في جانبه الاقتصادي يكاد أن يخر صعقاً لما يرى من نور يشع من الكلمات العلوية التي ترى كل سطر واحد منها بمثابة قرص مدمج حوى في طياته النظام الاقتصادي والتنموي الأمثل وكأن الإمام ينظر وهو في عام ٣٧ هـ، ويرى في عمود الزمن القرن الحادي والعشرين الميلادي والانهيار الاقتصادي العالمي والأزمة المالية فيشخص الداء ويقدم الدواء: «**وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ اَلأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اِسْتِجْلاَبِ اَلْـخَرَاجِ لأَنَّ ذَلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلّا بِالْعِمَارَةِ وَمَنْ طَلَبَ اَلْـخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ اَلْبِلاَدَ وَأَهْلَكَ اَلْعِبَادَ وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً**»(١).

ويقول له أيضاً بعد التأكيد على دعم الإنتاج والمنتجين ورعاية المشاريع الإنتاجية «**وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ اَلأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لأِشْرَافِ أَنْفُسِ اَلْوُلاَةِ عَلَى اَلْـجَمْعِ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ وَقِلَّةِ اِنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ**»(٢).

وبعد مسألة الإنتاج ينتقل إلى مسألة التوزيع والخدمات والتداول فيقول: «**ثُمَّ اِسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي اَلصِّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً اَلْـمُقِيمِ مِنْهُمْ وَاَلْـمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ وَاَلْـمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ اَلْـمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ اَلْـمَرَافِقِ وَجُلاّبُهَا مِنَ اَلْـمَبَاعِدِ وَاَلْـمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ وَحَيْثُ لاَ يَلْتَئِمُ اَلنَّاسُ لِـمَوَاضِعِهَا**»(٣).

يستفاد من هذه العبارات التي خصها الإمام لبيان دور الدولة الإسلامية

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٥٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

في بناء الاقتصاد السليم. وان ذلك يتم بقيام العالم الإسلامي بالمهمات التالية:

١ ـ الاهتمام بالانتاج قبل أخذ الضرائب:

يعد الخراج أهم مصدر مالي في الدولة الإسلامية منذ خلافة الخليفة الثاني إلى سقوط الخلافة الإسلامية والخراج هو الضريبة التي تأخذها الدولة في مقابل الاستفادة من الأرض العامرة التي فتحت عنوة وبواسطة الحرب من قبل جيش المسلمين مثل أرض العراق وبعض بلاد إيران... وتصرف هذه الضريبة في المصالح العامة للمسلمين كما ان هناك ضريبة أخرى تؤخذ في قبال إحياء الأرض الأخرى التي استسلم أهلها بدون حرب وكذلك أراضي الأنفال وهي الجبال وأرض الموات و الأهوار والمعادن وتسمى الضريبة التي تؤخذ من قبل الحكومة الإسلامية في غير الأرض الخراجية بضريبة الطسق.

وهنا يؤكد الإمام على الحكومة الإسلامية أن لا يكون همها منصباً على جباية الضرائب من الناس.

وهنا يمكن أن نستنتج قانوناً اقتصادياً يحدد علاقة الحكومة بالقطاع الخاص وهو الانتاج أولاً ثم الضريبة أو لا ضريبة إلا بعد الإنتاج وهو معنى قوله عليه السلام: «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج».

ويمكن أيضاً ان تستخرج معادلة هامة في الاقتصاد وهي إنّ:

جباية الضرائب + تناقص الانتاج = انهيار الاقتصاد.

وهو معنى قوله عليه السلام: «**ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً**» وعليه فإنّ جهاز جباية الضرائب في الحكومة

الإسلامية العلوية يجب أن يعمل بالتنسيق التام مع مؤسسات التنمية الزراعية والصناعية.

تحويل الأموال إلى مشاريع إنتاجية:

اذا اردنا ان نطبق كلام أميرالمؤمنين على عصرنا الحاضر فما يقابل الخراج من ذلك الزمن هو النفط الذي يعد المصدر الرئيس لاقتصاد الدول النفطية. ولاشك ان النفط هو الثروة التي خلقها الله سبحانه لرفاه جميع أفراد المجتمع حتى الأجيال القادمة وتوصية أميرالمؤمنين الاهتمام بعمارة البلاد أكثر من الاهتمام بجمع الأموال هو عبارة أخرى عن التوصية بوضع برنامج تنموي لثروات البلد. فمن الخطأ الكبير بل من الخيانة للأجيال القادمة ان تقوم الحكومات الحالية باستخراج كميات كبيرة من البترول وتحويلها إلى أموال تودع بعضها في البنوك الغربية وتتحول البعض الأخرى لشراء مواد استهلاكية فالمسؤولية والأمانة الشرعية والوطنية توجب على المتصدين لإدارة بلداننا الإسلامية النفطية ان يحولوا أموال النفط إلى شركات ومعامل ومشاريع تنموية كما ان النفط نفسه لا ينبغي ان نبيعه خاماً بأسعار زهيدة، وإنما يجب ان نكرره ونحوله إلى مشتقات وبتروكيماويات ونبيعه لتتحقق بذلك عمارة البلاد التي أمرنا بها أميرالمؤمنين صاحب الولاية التي إن دخلت تحت كنفها هذه الأُمّة لأمنت من العذاب والشقاء والفقر والهوان... ولو بقيت هذه الأُمّة بعيده عن منهج الولاية وبقي أمراء وشيوخ النفط يضخونه إلى دول الغرب بسخاء ولا يبتغون به سوى ملء الجيوب والبطون، فإن هذه الأُمّة ستفيق من سكرتها يوماً أو يأتي أبناؤنا فيجدون أرضاً بطنها خالية من الثروات وظهرها أجدب خال من الخيرات وعندها سوف يلعنون أسلافهم من الولاة الذين جبلت أنفسهم على

الجمع والتكاثر وطغى عليهم الجشع وسوء الظن بالبقاء ولم ينتفعوا بالمواعظ والعبر فأخربوا البلاد وأهلكوا العباد.

٢ ـ ربط التداول بالإنتاج:

التداول يعني نقل المنتوجات من مكان إلى آخر وهو مرحلة تأتي بعد الإنتاج الذي هو تحويل الثروات من حالة إلى أخرى تناسب حاجة الإنسان... وحيث ان حاجات الإنسان متنوعة فلابد ان يكون الإنتاج متنوعاً والمنتجون كثيرين ولابد أن يتم تبادل المنتوجات فيعطى أحدهما ما أنتجه ويأخذ الآخر ما احتاجه وهذه هي عملية التداول التي كانت في البداية عملية تبادل سلعة بسلعة ولكن كثرة المنتوجات والمنتجين دعت إلى تسهيل عملية التداول باتفاق جميع المنتجين على رمز معتبر قابل للتبديل في مقابل جميع المنتوجات وهو النقد الذي هو في الحقيقة بمثابة (السلعة الكلية) لأنه يمثل جميع السلع فأصبح المنتج يبيع منتوجه في مقابل السلعة الكلية أو النقد فيأخذ النقد ليشتري به ما شاء من المنتوجات الأُخرى.

وعملية التداول بهذه الطريقة الأسهل والأكمل تبقى سليمة ما دامت محافظة على كونها عملية لقاء للمنتجين وما دامت السلعة الرمزية الكلية تؤخذ لتبديلها بسلعة جزئية أو حقيقية.

أمّا إذا ابتعدت عملية التداول عن تداول المنتوجات الحقيقية وتحولت إلى تداول للسعلة الكلية الرمزية وهو النقد فإن ذلك يعني ان حركة المال في جسم المجتمع قد انحرفت عن مسارها الصحيح فتحولت عملية التداول من تداول المنتوجات واللقاء بين المنتجين إلى عملية تبادل ملكيات لأجل زيادة الفوائد والأرباح. وفي مثل هذه الحالة غير الصحية يصاب المجتمع بمرض التضخم

الكاذب للأموال عند فئة من الناس وهم الوسطاء الكاذبون والمتطفلون على عملية التداول بين المنتج والمستهلك مما تؤدي إلى ارتفاع الأسعار والتأثير السلبي على الإنتاج...

يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر في حديثه عن هذه الظاهرة: ولكن سيطرة الدوافع الأنانية على التجارة أدت إلى انحرافها عن وضعها الطبيعي الذي كان ناتجاً عن حاجة موضوعية سليمة وبخاصة في عصر الرأسمالية الحديثة. ونتج عن ذلك انفصال التداول والتبادل في كثير من الأحيان عن الإنتاج، وأصبح نقل الملكية عملية تقصد لذاتها، دون أن يسبقها أي عمل إنتاجي من الناقل وتمارس لأجل الحصول على فوائد وأرباح، فبينما كانت التجارة مصدراً لهذه الفوائد والأرباح بوصفها شعبة من الإنتاج أصبحت مصدراً لذلك لمجرد كونها عملية قانونية لنقل الملكية، ولهذا نجد في تجارة الرأسمالية: إن العمليات القانونية لنقل الملكية قد تتعدد على مال واحد تبعاً لتعدد الوسطاء بين المنتج والمستهلك لا لشيء إلا لكي يحصل أكبر عدد ممكن من التجار الرأسماليين على أرباح تلك العمليات ومكاسبها.

ومن الطبيعي أن يرفض الإسلام هذا الإنحراف الرأسمالي في عمليات التداول لأنه يتعارض مع مفهومه عن المبادلة ونظرته إليها بوضعها جزءاً من الإنتاج[1].

ولأجل أن لا يصاب اقتصاد المجتمع بهذا المرض العضال فإن المنهج العلوي يحتم على الحكومة أن تتدخل وتربط التداول بالإنتاج وتشرف على جميع

---

(١) اقتصادنا، محمد باقر الصدر: ج٢، ص٦٨٣ ــ ٦٨٤، طبعة دار التعارف ـ بيروت، ١٩٧٩.

عمليات التداول، فيقول عليه السلام لمالك الأشتر: «**واستوص بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيراً**» ويعرّفهم بأنهم الذين يقومون بعمل إنتاجي وهو انهم «**مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وسهلك وجبلك**» فهم ينقلون البضائع والأعيان من مواطن الإنتاج إلى مواطن الاستهلاك المتباعدة فيما بينها فيقدمون للناس خدمة كبيرة ويكفونهم مؤونة السفر والانتقال ويؤكد الأمير علي عليه السلام على مالك بأن يمنع جميع الأساليب غير الصحية والعمليات الوهمية لرفع الأسعار وصناعة ندرة كاذبة للسلع والبضائع فيقول: «**وَاعْلَمْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً وَشُحّاً قَبِيحاً وَاِحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ وَتَحَكُّماً فِي اَلْبِيَاعَاتِ وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَعَيْبٌ عَلَى اَلْوُلاَةِ فَامْنَعْ مِنَ اَلِاحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله مَنَعَ مِنْهُ**»(١).

ثم يأمره بالتدخل في السوق لأجل إيجاد عملية توازن في العرض والطلب ان اقتضي الأمر وحماية البائع والمستهلك والمنع من اضطراب الأسعار بنحو يجحف بأحد المتبايعين فيقول: «**وَلْيَكُنِ اَلْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ اَلْبَائِعِ وَاَلْـمُبْتَاعِ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ**».

الأزمة الاقتصادية الغربية:

ولو كانت البشرية قد اتبعت منهج ولاية الحق العلوية لما واجهت هذه الكبوات والأزمات الاقتصادية المتكررة التي قد تودي بها في الغد القريب إلى الانهيار الكامل فقد أقام الغرب اقتصاده بعد الثورة الصناعية على مبدأ السوق

(١) نهج البلاغة الكتاب ٥٣.

الحرة وعلى نظرية آدم سميث القائلة بأن على الدولة أن تترك السوق حراً ينظم نفسه بنفسه وإن في السوق يداً خفية تنظمه بذاته فلا يحق للدولة أن تتدخل فيه ولذلك لا تتدخل الدولة في الأنظمة الغربية الرأسمالية بالسوق والشركات الصناعية والتجارية ودور الدولة هو أخذ الضرائب لتقوم بواسطتها بأداء مهماتها في الأمن والقضاء والدفاع والسياسة الخارجية، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا النظام الهش في مجتمع ينظر أفراده إلى الحياة بأنها ليست إلا فرصة محدودة للحصول على أكبر قدر من التمتع والجمع والتكاثر، أن يؤدي إلى تنمية النزعة النفعية والحصول على أكبر مقدار ممكن من الفوائد والأرباح بكل الوسائل وحيث لا توجد أرضية أخلاقية وعقائدية تمنع ولا دولة تردع، فإنّ أصحاب رؤوس الأموال أخذوا يتجهون إلى أنواع من التعامل توفر لهم الربح الأكبر مع الجهد الأقل وابتعدت عملية تداول الأموال عن الإنتاج وذلك عن طريق التعامل الربوي بالسندات والبيع على المكشوف فبدلاً أن يكون التعامل بالنقود والأموال الحقيقية التي تعبر عن الإنتاج الحقيقي وتؤدي إلى حركته يكون التعامل بالسندات الربوية وهي صكوك تصدرها جهات مخولة بقيمة إسمية معينة مؤجلة إلى مدة معلومة وتبيعها بالأقل منها فيبيع مثلاً السند الذي قيمته مئة دولار بخمسة وتسعين دولار نقداً على أن يؤدي المئة دولار بعد سنة وهكذا يتم بيع وشراء هذه السندات التي تعود على البعض بأرباح مالية كبيرة دون أن تغير من واقع الإنتاج شيئاً وبهذه الطريقة تذهب الأموال الحقيقية إلى جيوب أصحاب التجارة الوهمية والعمليات الاقتصادية الكاذبة وبنفس الطريقة أيضاً تقوم بعض البنوك أو المؤسسات المالية بإقراض أموال لأشخاص غير قادرين على التسديد بضمانات من الدولة على أن تأخذ منهم بعد ذلك أقساطاً مع الفائدة وتسمى هذه المعاملة البيع على المكشوف... وهذا النوع من المعاملات هو الذي

سبب الأزمة المالية الأخيرة في الولايات المتحدة وأوروبا حيث قامت مؤسسات مالية وبنوك بإقراض أموال عقارية لأسر غير قادرة على التسديد ودون ضمانات كافية. وبعد بلوغ أجل الدفع وجدت مئات الآلاف من الأسر نفسها عاجزة عن التسديد وأدى ذلك إلى تراجع قيمة القروض لأن مئات الآلاف من الأسر غير قادرة على تسديد مليارات الدولارات من القروض ومع عجز البنوك حاولت هذه الأخيرة الإقراض من بنوك أخرى عبر السوق النقدي لكن البنوك الأخرى أصبحت ترفض الإقراض لغيرها واتسعت رقعة البنوك التي تعاني ولأجل تفادي اتساع الرقعة بدأت البنوك المركزية تقدم مليارات الدولارات كقروض البنوك لكن الوضع ازداد سوءاً وبدأت مضاربة كبيرة في البورصة حيث أقدم الوسطاء الماليون في بيع سندات بأعداد كبيرة لضمان الحصول على السيولة وهو ما ساهم في انخفاض قيمة السندات وأدت هذه العوامل إلى إفلاس أو وضع صعب لأكثر من خمسين بنك وشركة تأمين أمريكية وأوروبية وتسجيل تباطؤ في الإقتصاد مع تسارع آلاف الأموال في الولايات المتحدة وأوربا وارتفاع نسبة التضخم وارتفاع قيم السلع مما أثر في القدرة الشرائية لشريحة كبيرة..[1].

وهذه هي النتيجة الطبيعية لمن يتبع النظام الاقتصادي النابع من الأهواء ويترك النظام الذي تضعه السماء لإدارة الأرض وإقتصاد الأهواء هو الاقتصاد الذي وضعه آدم سميث وأمثاله وسموه الاقتصاد الحر، إنه اقتصاد قد بنى أساسه على رؤية كونية لا ترى الحياة إلا هذه الحياة الدنيا ولا ترى الدنيا إلا لهواً ولعباً وبالتالي فالحياة ميدان مغامرة ولا غرابة أن تتحول معاملاتها الاقتصادية إلى معاملات قمار لا هدف فيه سوى انتزاع الأموال من الطرف المقابل. وأما

(١) نقلاً عن موقع المحاسب العصري، شبكة الأنترنيت.

اقتصاد السماء التي تبلورت ملامحه في نهج علي فإنّه يضع نظام لحياة يعتبرها مقدمة لحياة الخلود ويربي أتباعه لينظروا إلى الاقتصاد والإنتاج والتوزيع والاستهلاك بأنها مسؤولية وأمانة وخلافة إلهية وليست متعة ولذة ولا تلهياً ولعباً ولذلك فإن علياً عندما يأمر بأن يتدخل الحاكم الإسلامي في القطاع الخاص فإنّه لا يتركه مطلق العنان وأنما يضع له برنامجاً محكماً ومنظماً وعادلاً للتوزيع والتداول والإستهلاك مرتبطاً ارتباطاً محكماً بالإنتاج فإن المنهج العلوي لا يريد أن يطبق هذا الاقتصاد المنظم تحت وطأة السياط والتهديد والوعيد.

إن المنهج العلوي يريد من الحاكم أن يكسب قلوب الرعية فيحكم على قلوبهم قبل حكومته على أبدانهم وإلا فإن العدالة الإنسانية التي يهدف إلى تحقيقها المنهج العلوي لا تقام بواسطة قوات الشرطة وسلاح الجيش وإنما تقام في الأساس على قوة القلوب التي يملأها التوحيد والولاء والمحبة للإنسانية إن الحاكم الصالح في المقياس العلوي هو الحاكم الذي يحبه الشعب «**وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى اَلصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي الله لَـهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ**»، ومن أجل ذلك فإنّه عليه السلام يقول لمالك: «**فَامْلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ فَإِنَّ اَلشُّحَّ بِالنَّفْسِ اَلأنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أو كَرِهَتْ وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ اَلرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَاَلْـمَحَبَّةَ لَـهُمْ وَاَللُّطْفَ بِهِمْ وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي اَلدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي اَلْـخَلْقِ**» ثم ينبه إلى أن ينظر دائماً إلى التعامل مع الرعية إن الله سبحانه وتعالى فوقه وأن يتعامل معهم كما يحب أن يتعامل الله معه فيقول: «**فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ اَلَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ الله مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي اَلأمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَالله فَوْقَ مَنْ وَلّاكَ وَقَدِ اِسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وَابْتَلاَكَ بِهِمْ**».

علاج آفة التسلط:

وحيث أن من طبيعة الإمرة والحكم والولاية إنها تظهر نزعة التسلط والاستعلاء عند الإنسان وتنمي عنده الغرور بالنفس والخيلاء ولذلك فإن علياً عليه السلام يوجه ولاته نحو النفوذ إلى قلوب الرعية والعفو والصفح وأن يكون الأساس في ولايتهم هو حبل المودة لا سوط السلطة كما يضع لولاته منهجاً لتفريغ بواطنهم من أبهة السلطان ومخيلة الرئاسة فيقول: «**وَلاَ تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ**» أي لا تستغل المنصب الذي هو أمانة في عنقك فتتكئ بكامل وجودك على قانون طاعة الحاكم فتأمر بكل ما ترغب فتجعل من القانون سوطاً على ظهور الناس لكي ينفذوا أهواءك ورغباتك.

ويبين أميرالمؤمنين عليه السلام عاقبة الاستغلال السيئ للسلطة فيقول: «**فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي اَلْقَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ مِنَ اَلْغِيَرِ**» أي إن نتيجة الممارسات السلطوية للحاكم مع الناس هو فساد القلوب وتضعيف الدين وتعريض الدولة والسلطان إلى الانهيار والاستبدال... ثم يضع برنامجاً للولاة في مراقبة أنفسهم ومحاسبتها فيقول: «**وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أو مَخِيلَةً فَانْظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ الله فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ**» أي إنّ الوالي إذا شعر في داخله أن ريح الكبر والعظمة بدأت تهز أغصان قلبه وإن باطنه بدأ ينتفخ فليعلم بأن عقله بدأ يغادر ويعزب ليحل محله الوهم والخيال والغرور وعليه هنا أن يجلس فوراً مع نفسه وينظر إلى عظمة الله الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه وهو فوقه في كل شيء فإن هذا الفكر والتدبر في سلطان الله يكبح جماح السلطة عند الولاة ويطفئ ما

أصابهم من (غرب) أي حدة وغرور وغطرسة ويرجع إليهم عقلهم.

ويؤكد عليهم العاقبة الوخيمة للشعور بالعظمة فيقول: «**إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ الله فِي عَظَمَتِهِ وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ فَإِنَّ الله يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ**».

ثمّ يحذر علي عليه السلام الوالي والحاكم من المحسوبية والميل إلى الأقارب والأصدقاء فيقول: «**أَنْصِفِ الله وَأَنْصِفِ اَلنَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ الله كَانَ الله خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ وَمَنْ خَاصَمَهُ الله أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لله حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ الله وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ فَإِنَّ الله يَسْمَعُ دَعْوَةَ اَلْـمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ**» ثم ينبّه إمام الحق والحقيقة الوالي والحاكم إلى مسألة حساسة وهو الحذر من البطانة والحواشي القريبة التي تتقاطع رغباتها وميولها وطموحاتها في الكثير من الأحيان مع المصلحة العامة.

وفي مثل هذه الحالة فإن الحاكم الذي يطبق الموازين العلوية في الحكم هو الذي يضحي برغبات الخاصة من أجل مصلحة العامة لا العكس. يقول أميرالمؤمنين علي عليه السلام: «**وَلْيَكُنْ أَحَبُ الأُمور إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي اَلْـحَقِّ وَأَعَمُّهَا فِي اَلْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى اَلرَّعِيَّةِ فَإِنَّ سُخْطَ اَلْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى اَلْـخَاصَّةِ وَإِنَّ سُخْطَ اَلْـخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى اَلْعَامَّةِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ اَلرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى اَلْوَالِي مَؤُونَةً فِي اَلرَّخَاءِ وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي اَلْبَلاَءِ وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ وَأَسْأَلَ بِالأَلْـحَافِ وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ اَلأعْطَاءِ وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ اَلْمَنْعِ وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ اَلدَّهْرِ مِنْ أهل الْـخَاصَّةِ وَإِنَّمَا عَمُودُ اَلدِّينِ وَجِمَاعُ اَلْـمُسْلِمِينَ وَاَلْعُدَّةُ لِلأعْدَاءِ اَلْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّة فَلْيَكُنْ صَغْوُكَ لَـهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ**». وياليت حكامنا ينتبهون إلى هذه الحقيقة التي يكشفها لهم هذا النص المقدس فيحذروا ممن يجتمع حولهم من النفعيين والمتزلفين وأن يجعلوا آذانهم

صاغية لتسمع لسان حال العامة وتنفذ طلباتهم قبل الخاصة وأن يتقربوا إليهم ويحطموا الجدار الذي يحاول أن يصنعه الخاصة بينهم وبين العامة كي ينفردوا بهم.

ولأجل أن لا تكون بطانة الحاكم جداراً وحجاباً بينه وبين العامة فإن أميرالمؤمنين يبين للحاكم المواصفات التي على ضوئها يختار وزراءه ومستشاريه وأولها أن لا يكون ذا سابقة في المشاركة في حكومات الأشرار لأنه قد اعتاد على العون على الإثم والتملق وتدليس الحقائق طمعاً في رضا صاحب الجلالة والفخامة. فيقول لمالك: «**شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي اَلآثَامِ فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ اَلأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ اَلظَّلَمَةِ**».

ولكي يكون الحاكم على اطلاع دائم مع واقع الرعية فلابد لهم من أعوان ينقلون له الواقع بلا رتوش وألوان وتعامي وانتقائية، وهذا يحتاج إلى حاكم تستمرئ هاضمته لقمة الصدق والحق على رغم مرارتها وتلفظ خضمة المدح والإطراء على رغم حلاوتها... ولذلك يؤكد الإمام على مالك أن يختار لوزارته أهل الورع والصدق ويقول: «**فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ بِمُرِّ اَلْحَقِّ لَكَ وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لأَوْلِيَائِهِ وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ**» أي إن وزيرك الأول وصديقك الأوفى هو الأشجع والأجرأ في نقل الحقيقة وأشد الناس صدقاً وصراحة في النصيحة طابق ذلك هواك أم لا، ثم يقول له «**وَالْصَقْ بِأَهْلِ اَلْوَرَعِ وَاَلصِّدْقِ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَنْ لا يُطْرُوكَ وَلاَ يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ فَإِنَّ كَثْرَةَ اَلأَطْرَاءِ تُحْدِثُ اَلزَّهْوَ وَتُدْنِي مِنَ اَلْعِزَّةِ**» أي إنّ الحاكم العلوي هو الذي يروض وزراءه وأعوانه على تجنب الإطراء والمدح له ويعلمهم إن كلمات المدح والإطراء ميكروبات تصيب الحاكم بمرض

الزهو والغرور وتصيبه بالعظمة الوهمية والعزة الكاذبة.

ولا يكتفي علي بالنصيحة المباشرة لولاته وإنما يتابعهم في ولاياتهم بدقة. ولا يتابعهم ليرى مقدار ولائهم وإخلاصهم له ولا ينتظر التقارير التي تعكس له مقدار الصور واللافتات والبوسترات وقصائد المدح والتقريظ وإنما يتابعهم بكامراته التوحيدية الخاصة وأقماره الولائية لينظر إلى المسافة بينهم وبين عامة الناس ولاسيما الفقراء فإذا ما سجلت كاميرات المراقبة العلوية عند أحد من الولاة تقرباً إلى الأغنياء على حساب الفقراء فإن جرس الولاية العلوية سيقرع في أذنه منبهاً له كي يعود إلى وسط الجادة العلوية كما فعل ذلك مع عثمان بن حنيف وقد كان من خلّص أصحاب علي سلام الله عليه... لم يكن عثمان بن حنيف قد بنى قصوراً أو جمع ذهباً أو فضة أوملأ ارصدته في بنوك اوروبا والخليج اوإنه اختار لنفسه البيض الحسان أو الصافنات الجياد من بيت مال الولاية، كل ما فعله ابن حنيف إنه شارك في وليمة لأحد أغنياء البصرة وكانت الوليمة خاصة بالطبقة الارستقراطية المرفهة ومقفلة على اصحاب رؤوس الاموال واصحاب الرواتب العالية ... ولم يدع إليها الفقراء واصحاب الدخل المحدود وفاقدوا الألقاب والاسماء فما كان من بطل العدالة في التاريخ إلا التدخل السريع بضربة تربوية قاصعة ورسالة توبيخية وتنبيهية صاعقة كي يحمي واليه العزيز عليه من الحيف عن طريق الولاية ويرسخ أقدامه على صراط الهداية.

ولم يكن فعل علي هذا من التشدد والتطرف بشيء وإنما أراد علي أن يعلم ولاته أن يحذروا مثل هذه الولائم فإنها تفت في العزائم وتنتهي في مقابل الأعداء إلى الهزائم وفي مقابل الرعية إلى الجرائم.

وكم من جريمة كان أولها لقمة مشبوهة أو نظرة خائنة أو كلمة مشوبة

بكبر أو نشوة زهو بعبارة إطراء أو مدح ولذلك فإن علياً يؤكد على الحاكم على أن يحيط فمه وجوارحه بقناع من التقوى كي لا يدخل إلى جوفه شيء إلا بعد التصفية والفلترة من الشبهات فالحاكم في سدة الحكم كالطبيب الجراح في غرفة العمليات لا يترك القناع الواقي مخافة التلوث...

والحاكم يعيش في وسط مغريات المال والجاه والسلطة فلا ينبغي له أن يخلع لباس وقناع التقوى... انظر ماذا يقول أميرالمؤمنين لعثمان بن حنيف: «وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ فَانْظُرْ إِلى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا اَلْمَقْضَمِ فَمَا اِشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلْ مِنْهُ»[1].

حكومة علي: عمارة البلاد وخدمة العباد :

نعم ان علياً لم يكلف ولاته عبء الاقتداء بزهده الذي جعله يكتفي من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ولم يحملهم ثقل رياضة جعلت نفسه تهش إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً ولكنه لم يقبل لهم أبداً أن يخلعوا ثوب الورع والاجتهاد والعفة والسداد. انه يقول لهم: «**أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ**»[2] وإنّني لست ذلك الإمام الذي يقرع أسماع الناس بخطاب الزاهدين ويعمل عمل الراغبين، بل أنا الذي قطعت أشواطاً في الرفض لهذه الدنيا لا يمكنكم بلوغها... ولكن لابدّ أن تسيروا في طريقي... وطريقي هو طريق إظهار العدل الإلهي في الأرض... أما أنا فلا أكتفي

(١) نهج البلاغة الكتاب ٤٥.

(٢) نفس المصدر.

«**أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أميرُ المؤمنين وَلاَ أُشَارِكَهُمْ فِي مَكَارِهِ اَلدَّهْرِ أو أَكُونَ أُسْوَةً لَـهُمْ فِي جُشُوبَةِ اَلْعَيْشِ**... أنا الذي «**وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ اَلطَّرِيقَ إلى مُصَفَّى هَذَا اَلْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا اَلْقَمْحِ وَنَسَائِجِ هَذَا اَلْقَزِّ وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشَعِي إلى تَخَيُّرِ اَلأَطْعِمَةِ**»[1].

إنّ أميرالمؤمنين عندي ليس هو الذي ينتظر البيعة أو الفوز بالإنتخابات فيحتفل ويجلس على كرسي السلطة ليتلذّذ بنشوة الاستماع لألقاب الإمارة والخلافة والمملكة والرئاسة وأن يقال له صاحب السمو وصاحب الجلالة أو صاحب الفخامة، إنّ أميرالمؤمنين عندي هو الذي يحمل في داخله كلّ هموم الأُمّة وتهتزّ جوانحه بشعورها، فلا يسمح لنفسه أن يبيت شبعاناً وفي البلاد جائع يشكو السغب؛ لأنه يفكر ويقول «**وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أو اَلْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي اَلْقُرْصِ وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ أو أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى**».

إنّ علياً لم يكلّف أتباعه أن يرتقوا إلى قمته التي ينحدر عنها السيل ولا يرقى إليها الطير، ولكنّه لم يسمح لهم أن يحيدوا عن طريقته وفرض عليهم أن يعيشوا مع الناس ليذيقوهم طعم العدل ويكونوا لهم قادة وقدوة ومثالاً وأسوة والناس ينظرون إلى الحاكم ويلتقطون منه الصور من جميع جوانب حياته وسيرته وسلوكه فعليه أن يلتفت إلى كل حركاته وسكناته ومواقفه وكلماته صغيرها وكبيرها كي لا تلتقط له أجهزة تصوير الرعية غير صورة العدل والقدوة الحسنة.

ولذلك يقول علي لواليه على مصر محمد بن أبي بكر حين قلّده مصر:

---

(١) نفس المصدر.

«فَاخْفِضْ لَـهُمْ جَنَاحَكَ وَأَلِنْ لَـهُمْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ لَـهُمْ وَجْهَكَ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اَللَّحْظَةِ وَاَلنَّظْرَةِ حَتَّى لاَ يَطْمَعَ اَلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَـهُمْ وَلاَ يَيْأَسَ اَلضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ الله تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ اَلصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَاَلْكَبِيرَةِ وَاَلظَّاهِرَةِ وَاَلْـمَسْتُورَةِ فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ»[1].

وهكذا نرى حكومة علي تقدم للحضارة المثال الأعلى لحكومة الإنسانية، لا الحكومة التي لا توازن بين الحق والواجب فحسب، وإنّما هي تعطي للعباد حقوقهم وتجعل من واجباتهم حقوقاً تردّ عليهم فهي لا تأخذ الضرائب ولا تسيطر على توزيع الثروات إلا لتكون إنتاجاً يخدم عامة الناس ولا تحدّد حركة الفرد إلا لأجل خدمة النوع كما انّ لها منهجاً تعليمياً وتربوياً يتجه نحو جذب الجوانح والقلوب والأرواح نحو منهجها كي تتحرك القلوب بالمحبة قبل أن تتحرك الجوارح والأعضاء بالأوامر والأحكام...

فمتى يا أيتها الدنيا تفرشين بساطك للمنهج العلوي كي يهب على الأرض نسيم الإنسانية وتشم عبق العدل الشامل الذي لا يعرف التمييز والانتقائية فتخرج الأرض كنوزها وتنزل السماء بركاتها ويقف الضعيف فيها إلى جنب القوي ليأخذ حقه منه غير متعتع...

(١) نهج البلاغة الكتاب٢٧.

زراعة المحبة

(التنمية الاجتماعية):

التواصل الاجتماعي من أهم أركان التنمية البشرية... إذ لا تنمية بشرية بلا مجتمع ولا مجتمع بلا تواصل وقوة المجتمع تابعة لقوة الأواصر التي تجمعه والخيوط التي يتكون منها نسيجه فكم هو الفرق بين مجتمع صنعت خيوط نسيجه الاجتماعي من مادة المنفعة والمصلحة كما هو السائد في أكثر المجتمعات أو مجتمع ليس فيما بين أفراده أواصر وخيوط وانما هو مكبوس بالقانون وثقافة النظام كما هو المجتمع الغربي اليوم وبين مجتمع يترابط بخيوط زرعها كل فرد في نفسه فنشبت وتهدلت غصونها عليه وفروعها على غيره فتشابكت وكونت مجتمع الاخوّة انها خيوط المحبة. وهذا هو مجتمع النهج العلوي.

فهناك ثلاثة أنواع من المحبة:

١ ـ **محبة التجارة**: وهي المحبة القائمة على أساس المنفعة فكل فرد يتعامل مع غيره وفقاً لما يقرأه في ماكنة الحساب التي أمامه حتى في السلام على الآخرين... فعدد كلمات السلام ولحنها ودرجة الصوت كلها تحدد في حاسبة الأرباح والمنافع فإذا كان هناك رجاء لمنفعه كان السلام والكلام والطعام، وإذا

ما انقطع رجاء المنفعة انقطع حبل المودة.

وكما قال الشاعر:

كـم لـك في بغـداد مـن صـديق حتـى إذا مـا جـاء يـوم الـضيق

بـاعـك بالصاع مـن الـرفيق

وقال آخر[1]:

كفـى حزنـاً ان الـصديق إذا اقتنـى غنـى صـد حتـى لا يقـال صـديق

فليـت صـديقاً يفـسد المـال ودّه إلى يـوم يلقـاه الحـمام مـضيق

وهذه المحبة محبة لا تتجاوز اللسان أما القلب فليس فيه مجال لحب أحد بعد أن امتلأ بالطمع والحرص وحب الجمع والتكاثر.

هذا هو مجتمع أصالة المنفعة والمجتمع الذي تحكمه ثقافة المنهج الأموي وقد حذرنا أمير المؤمنين عليه السلام من نصائح مثل هذا المجتمع فقال: «**فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ اَلْبَاطِلُ مَآخِذَهُ وَرَكِبَ اَلْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ وَعَظُمَتِ اَلطَّاغِيَةُ وَقَلَّتِ اَلدَّاعِيَةُ وَصَالَ اَلدَّهْرُ صِيَالَ اَلسَّبُعِ اَلْعَقُورِ وَهَدَرَ فَنِيقُ اَلْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ وَتَوَاخَى اَلنَّاسُ عَلَى اَلْفُجُورِ وَتَهَاجَرُوا عَلَى اَلدِّينِ وَتَحَابُّوا عَلَى اَلْكَذِبِ وَتَبَاغَضُوا عَلَى اَلصِّدْقِ فإذا كَانَ ذَلِكَ كَانَ اَلْوَلَدُ غَيْظاً وَاَلْمَطَرُ قَيْظاً وَتَفِيضُ اَللِّئَامُ فَيْضاً وَتَغِيضُ اَلْكِرَامُ غَيْضاً وَكَانَ أهل ذَلِكَ اَلزَّمَانِ ذِئَاباً وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً وَغَارَ اَلصِّدْقُ وَفَاضَ اَلْكَذِبُ وَاُسْتُعْمِلَتِ اَلْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ وَتَشَاجَرَ اَلنَّاسُ بِالْقُلُوبِ وَصَارَ اَلْفُسُوقُ نَسَباً وَاَلْعَفَافُ عَجَباً وَلُبِسَ اَلإسلام لُبْسَ اَلْفَرْوِ مَقْلُوباً**»[2].

---

(١) الأبيات لأبي حمران السلمي.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٠٨.

٢ ـ **محبة الصناعة**: عندما تتجول في المدن الأوروبية والأمريكية إلى حد ما وتدخل إلى مؤسساتها وأسواقها فإنك سوف ترى ان نوع التعامل السائد بين أفراد المجمع قائم على الاحترام والتقدير وبشاشة الوجه.

فهل أن هذا التعامل الإنساني نابع عن إنسانية حقيقية؟

إن طريقة تعامل البلدان الغربية مع سائر شعوب الأرض منذ الثورة الصناعية إلى اليوم يؤكد الجواب بالنفي على هذا السؤال.

فهذا التعامل جاء من ثقافة احترام القانون... الذي يفرض على الأوروبي ان يحترم العمل والمراجعين والزبائن... لكي يتخذ العمل مساره الصحيح.

فالثورة الصناعية في أوروبا كما صنعت الآلات والمكائن كذلك صنعت نوعاً من المحبة التي يفرضها العمل... فأنت عندما تراجع أي موظف أو عامل أو رب عمل فإنك سوف تحصل على الابتسامة والعبائر المحترمة ولكنك لا تحتاج إلى كثير من الفراسة كي تعلم بأنها ابتسامة مصطنعة ناشئة من محبة صناعية، ولا ضير في ذلك ،فنحن نحب ان تسود المحبة، ولكن مشكلتهاانها قد أنتجت للاستهلاك الداخلي فقط وهي غير قابلة للتصدير إلى خارج أوروبا وأمريكا.

وما يصدر من الغرب إلى خارجه من التعامل مع الشعوب فهو شيء آخر اقتضته المصلحة العامة للإنسان الغربي.

يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان:

«وأما ما يرى البعض من النظام والصدق والصفاء والأمانة في المجتمعات الغربية فهذا القول ناشئ من الخلط والاشتباه وسببه أن الباحثين الشرقيين غير

قادرين على التفكر الاجتماعي وانما يفكرون تفكيراً فردياً بأن لا يفكر الإنسان إلا بما يجلب المنافع والأرباح لنفسه ويدفع المضار عنها وليقس غيره على نفسه لكن الذي يفكر تفكيراً اجتماعياً يرى أنه غير منفصل عن المجتمع وان منفعته جزء من منفعة المجتمع وخيره خير المجتمع وشره شره فمثل هذا الإنسان يفكر بجلب الخير إلى نفسه عن طريق جلب الخير للمجتمع ودفع المضار عنه وأما الخارج عن مجتمعه فلا يهمه ولا يوليه أية قيمة»[1].

أي ان الثورة الصناعية أسست عند المجتمع الغربي ثقافة المصلحة الاجتماعية بحيث صار الفرد الغربي يشعر بأن مصلحته بتطبيق النظام والقانون الاجتماعي وضرره بعدم تطبيقه فالمجتمع عنده بمثابة البدن الإنساني وهو عضوه فاليد إذا جلبت النفع ودفعت الضرر عن أعضاء البدن الأخرى انما قامت بذلك لأجل نفسها وبدنها الذي تتصل به... ولا يهمها الأبدان الأخرى وأفراد الإنسانية الأخرى، والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة فيعتبر أفراد المجتمع إذا فكروا تفكيراً اجتماعياً فالمجتمع تكون له شخصية واحدة، ويضيف العلامة الطباطبائي فيقول[2]:

«وبناء على هذا فما ذكروه من الصدق والأمانة والنظم والصلاح بين أفراد المجتمع المتمدنة ليس دليلاً على الكمال والسعادة الإنسانية، بل ينبغي أن نرى كيفية تعاملهم مع الأمم الأخرى والمجتمعات الضعيفة ولعمرى لو نظرت إلى هذا الأمر فإنك بأدنى تأمل سترى أنهم كالوحوش الكاسرة ينهبون ثروات الأمم الأخرى ويقتلون أبناءها كما تقتل الحشرات والديدان ويمارسون معهم

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي: ج٤، تفسير الآية٢٠٠ من سورة آل عمران.
(٢) انظر الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي: ج٤، تفسير الآية٢٠٠ من سورة آل عمران.

أقبح أنواع الظلم والخداع باسم الاستعمار تارة وباسم الحرية والسلام والديمقراطية وحماية حقوق البشرية تارة أخرى».

٣ ـ **محبة الزراعة**: وهي المحبة التي توجد بذورها في كل نفس إنسانية وإنما تحتاج إلى منهج تعليمي وتربوي يسقيها ويغذيها ويرعاها كي تتفلق بذورها وتمتد جذورها وتنمو وتتفرع أغصانها وتزهر أوراقها... وهذه هي المحبة الإنسانية الحقيقية التي يغرسها المنهج العلوي في نفوس أتباعه...

انه يوجه الإنسان أن يبادر إلى حب الآخرين... لأن الآخر أما ان يكون أخاً في الدين أو نظيراً في الخلق... وسعادة الإنسان ان يعيش في مجتمع الأخوّة الإسلامية والإنسانية... وهذا بنفسه هدف كبير لو تحقق فإنّه أعظم بكثير من جميع الأهداف الجزئية والمصالح الصغيرة.

ولكي يتحقق هذا الهدف فعلى الإنسان ان لا ينطلق في حبه للآخرين من منطق الربح والمنفعة المقابله... انظر إلى الهدي العلوي كيف يرسم الطريق نحو زرع المحبة الإنسانية فيقول: «**يَا بُنَيَّ اِجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاِكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاِسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ اَلنَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَـهُمْ مِنْ نَفْسِكَ وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ وَلاَ تَقُلْ مَا لا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ**». ما أعظمها من كلمات تتدفق بالنور للبشرية وتربط جميع أفرادها بنسيج خيوط الأخوّة والمحبة والقيم الإنسانية.

انه لا يقول أحبب غيرك إذا كنت ترجوه أن ينفعك أو يحبك. بل هو أمر بالحب غير المشروط... وليس في هذا الأمر إلغاء لحب النفس حتى يقال بأنه تحليق في الخيال وابتعاد عن الواقع... انه لا يقول للإنسان لا تحب نفسك.

ولكن يقول له أن حب نفسك يتحقق بحب غيرك، وما تحبه ان يتحقق لنفسك فانما يأتي إذا عملت على تحقق هذا المحبوب لغيرك وما تكرهه لنفسك تبعده عن نفسك بإبعاده عن غيرك.

وحيث ان جميع افراد الإنسانية يحب العدل ويكره الظلم،لاانت وحدك،فعليك ان تحقق العدل وتبتعد عن الظلم في تعاملك مع جميع من يحب العدل ويكره الظلم،وهو مطلق الإنسان، وليس المسلم وحده، ولا الامريكي ولاالغربي ولاالشرقي.

فإذا كنت تريد الربح والمنفعة فاجعل المقابل لك في المعاملة يربح لكي تربح أنت وإذا كنت تريد الاحترام والتقديس والإكرام فاكرم غيرك واحترمه كي تُحترم أنت فإذا أربحت غيرك فقد ربحت وإذا أكرمت غيرك فقد أكرمت نفسك ومن أجل ان تزول العداوة والبغضاء من المجتمع فالطريق لذلك ليس أن تنظر المقابل ان يتحرك إليك وإنما عليك أنت أن تتحرك نحوه بإزالة البغضاء من قلبك «**احْصُدِ اَلشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِك**»[1]، إن هذا الكلام العلوي ينطوي على منهج تربوي ناشئ من الرؤية الإسلامية للإنسان... وهي ان حقيقة الإنسان هي النفخة الإلهية التي نفخها هي هيكله المادي الطيني... وهي الروح، وهذه الروح ترتبط بالله خالق هذا الوجود من جهة لأنها منه ومن جهة أخرى هي تنجذب إلى جميع الأرواح الأخرى التي هي حقائق أفراد الإنسانية الآخرين.

وسعادة الإنسان وكماله بإقامة هذا الارتباط بالخالق وبالمخلوقين فمن اتبع هدى الله وسافر إلى الحق ليعود إلى الخلق وراح يمشي في الناس ويسير في

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٧٨.

الخلق بنور الحق فإنّه لا يضل ولا يشقى...

ومن أعرض عن الارتباط بالله وحرم من ذلك السفر الممتع وبقي في جدران الهوى والنفس الحيوانية فإن له معيشة ضنكاً ويُحشر يوم القيامة أعمى...

فالإنسان يحمل بذرة الإنسانية في داخله... وسعادته في تحويل هذه البذرة إلى شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها...

وسقي هذه البذرة يتم بحركة الإنسان نحو الإنسان الآخر بدافع المحبة.

إن الماء الذي يسقي بذرة الإنسانية هو الذي تتفجر عيونه إذا ضرب الإنسان على صخرة (الأنا) بمعول المحبة الإنسانية لا المحبة التي تعود بالمصالح والمنافع والأرباح على الفرد لأن هذه المحبة ترسخ صخرة الأنا وتزيدها صلابة... ولا المحبة الناشئة من القانون والنظام الذي فرضته المصلحة القومية أو الإقليمية أو الفئوية فهذه أيضاً كصاحبتها ولكن معولها أكبر حجماً...

إنها المحبة التي تفتت (الأنا) وتحولها إلى (نحن)...

انها المحبة التي تجعل الإنسان يتقرب إلى الله بمحبة المخلوقين،كل المخلوقين.. فإذا سقيت بذرة الإنسانية بماء محبة المخلوقين... اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج...

وهذا هو المنهج التربوي العلوي للتواصل الاجتماعي الذي يجعل من المجتمع بستاناً من أشجار محبة متهادلة غصونها على بعضها ومتشابكة جذورها ومتعانقة أوراقها وتتنافس أزهارها وتتسابق على إهداء نفحات أريج الإنسانية لأبناء نوعها... انه المنهج الذي يجعل الإنسان يلتذ ويبتهج بنفس التواصل ومحبة الآخر... ولا يريد من البشر جزاءً ولا شكوراً.

كما ان الإنسان الذي يتربى على الكرم والجود يلتذ بنفس الكرم والعطاء... والإنسان الذي تربى على صفحة الشجاعة والنخوة يلتذ بها دون أن ينتظر المكافأة كذلك الإنسان في المجتمع العلوي يتلذذ بحب الآخرين ابتغاء الكمال المطلق الذي هو فوق جميع الناس والمخلوقات...

وهذا هو التواصل الاجتماعي الذي يصنع الحضارة الإنسانية...

لأنّه تواصل الإنسان للإنسان وتضحية الإنسان لأخيه الإنسان...

انظر هذا علي في تواصله فهو يتأذى إلى درجة تمنى الموت من أجل امرأة معاهدة وهي امرأة غير مسلمة أصابها الأذى بهجوم جيش معاوية على الأنبار[1] وهذا علي يحمل طعامه وطعام أهله وأولاده ليعطيه للأسير الجائع هذا الأسير لم يكن مسلماً بل كافر ويبيت علي وعياله جياعاً وبطونهم خالية من الطعام ولكنهم شبعى وقلوبهم مبتهجة بلذة الإنسانية...

وحافظ علي على التواصل الإنساني حتى مع ألد أعدائه.

وإنك لو سبرت أغوار التاريخ لما وجدت بطلاً كعلي في تعامله مع أعدائه فهاهو في صفين عندما وصل إلى شريعة الفرات فوجدها بيد جيش معاوية وقد أمسكوا بها ليقاتلوا بسلاح العطش جيش العراق وبعد ان لم تنفع النصيحة بهم قال لأصحابه: «**رَوُّوا اَلسُّيُوفَ مِنَ اَلدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ اَلْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَاَلْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ**»[2]، فهجم أصحاب علي وانتزعوا الشريعة من جيش الشام وهنا كان رأي بعض أصحاب علي أن تتم المقابلة بالمثل ولكن علياً أبى ذلك وأمر بأن تفتح الشريعة لجيش الشام كي يأخذ ما يكفيه من الماء...

---

(١) انظر نهج البلاغة الخطبة رقم ٢٧.

(٢) نهج البلاغة الخطبة٥١.

إن علياً لا يريد أن يسجل له التاريخ نصراً حصل عليه بمنع أعدائه من شرب الماء فهو لم يأت للقتال إلا لأجل الإنسانية والإنسانية تأبى أن يُقتل الإنسان بالعطش ويحرم من شرب الماء. ومعاوية وإن كان قد انسلخ من الإنسانية بطغيانه ومكره وخداعه وجيش الشام قد فقدوا إنسانيتهم بالجهل والطمع... لكنهم بلحاظ شرب الماء والعطش والضمأ لا زالوا يحتفظون بحقهم الإنساني وعلي جاء ليقاتل معاوية الطغيان والمكر والخداع ولم يأتي لمحاربة معاوية الإنسان ولو لم يبق من إنسانيته إلا العطش إلى الماء. وكذلك فعل علي مع عمرو بن العاص وهو رأس الفتنة والعقل المدبر لجيش معاوية ومخترع خدعة التحكيم وعندما برز لنزال علي لم يتخلص ابن العاص من الموت المحتم بسيف علي إلا بعد أن أوصلته فطنته الخارقة إلى مقابلة السيف بإبراز العورة وأن يعترض صاروخ السيف العلوي بمضادات عورته، لعلمه بأن ذا الفقار مصمم لرؤوس الأبطال وأعناقهم ولا يعمل في ظهور الجبناء وأدبارهم وإن علياً سوف يعفو عن قتله عندما ينهزم بهذا النحو الفاضح، إنه يعلم بأن علياً يأبى أن يحقق نصراً على منهزم منكسر قد حطم شخصيته بهذا النحو كي يحفظ شخصه لأن المروءة والشجاعة الإنسانية تأبى ذلك فنهج علي هو نهج الإنسانية في حربه وسلمه مع أصدقائه وأعدائه. فولاية علي هي الولاية التي ترعى الإنسانية كي تكون المحور للتواصل الاجتماعي ولذلك فقد اكتمل الدين بهذه الولاية وتمت النعمة على البشرية.

رعاية المحبة

كما أكد المنهج العلوي على غرس شجرة المحبة الإنسانية في النفوس كذلك وفّر الأجواء التربوية التي ترعى هذه الشجرة وتحافظ عليها مورقة مزهرة ومثمرة، وفي هذا المجال يمكن للباحث التربوي عن التواصل الاجتماعي في نهج البلاغة أن يشخص المحاور التالية:

١ ـ أمر الولاة بالعدل الكامل مع الرعية:

أخطر ما يفتك بالمحبة بين الناس هو التمييز فيما بينهم من قبل الحاكم وكما أن رب الأسرة إذا ما فرق بين ولده بالعطاء والهبات بل وحتى في القبلات والنظرات فإنّه يؤدي إلى نشوء التحاسد والتباغض فيما بينهم كذلك فإن الوالي والحاكم والقائد هو بمثابة الأب الكبير للرعية فإذا ما تعامل مع الرعية بالتمييز العرقي أو الطائفي أو العائلي فإنّه سوف يعرض النسيج الاجتماعي إلى النقض والتحلل وشيوع الكراهية والبغضاء ولذلك يأمر علي واليه على مصر محمد بن أبي بكر بأن يساوي بين الناس حتى في النظرة فيقول: «**فَاخْفِضْ لَـهُمْ جَنَاحَكَ وَأَلِنْ لَـهُمْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اَللَّحْظَةِ وَاَلنَّظْرَةِ حَتَّى لاَ يَطْمَعَ**

اَلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ وَلاَ يَيْأَسَ اَلضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ»[1]، وبالتمييز سوف يتحول المجتمع إلى طبقتين أحدهما مع الحاكم والأخرى مهملة ومهمشة وقد يتحول المجتمع بالتدريج إلى جبهتين متنازعتين وينبه عليه السلام وإليه الآخر على مصر مالك الأشتر إلى خطر التعامل الانتقائي مع الناس وأن لا يؤثر بريق بعض الأسماء اللامعة على نظرته العادلة للرعية فيقول: «**وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ اَلْوُلاَةِ اِسْتِقَامَةُ اَلْعَدْلِ فِي اَلْبِلاَدِ وَظُهُورُ مَوَدَّةِ اَلرَّعِيَّةِ وإِنَّهُ لاَ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلّا بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ**»[2]. «**ثُمَّ اِعْرِفْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى وَلاَ تُضِيفَنَّ بَلاَءَ اِمْرِئٍ إِلى غَيْرِهِ وَلا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ اِمْرِئٍ إِلى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ صَغِيراً وَلاَ ضَعَةُ اِمْرِئٍ إِلى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ عَظِيماً**»[3].

و كما إنه عليه السلام كان شديداً في ميزان العدل حتى مع أقرب الناس إليه وقد رأينا كيف إنه لم يسمح لأخيه عقيل بصاع من الطعام أكثر من سائر الناس ووبخه على هذا الطلب بأشد الأساليب وغضب غضباً شديداً على ابنته لأنها استعارت من بيت المال عقداً لأجل أيام العيد أي منبهاً لها بأن تساوي نفسها بسائر النساء اللاتي لا يمتلكن هذا العقد كذلك هو يأمر ولاته بأن يكون لهم ميزان واحد للقريب والبعيد فيقول عليه السلام لمالك: «**وَأَلْزِمِ اَلْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ اَلْقَرِيبِ وَاَلْبَعِيدِ وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ وَاِبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ**».

أي إنّ الوالي إذا ساوى قرابته بسائر الناس قد يتعرض للوم والعتاب

---

(١) نهج البلاغة الكتاب٥٣.

(٢) نهج البلاغة الكتاب ٥٣ عهد الإمام إلى مالك الأشتر .

(٣) نفس المصدر.

والهجر من بعضهم ولكن الحصيلة النهائية للعدل هي الربح الأكبر برضى الله سبحانه وكسب مودة الرعية وإذا ما أوجدت بعض المواقف المبهمة للوالي أو الإعلام المغرض للأعداء ضبابية في أذهان الرعية تجاه الوالي فعليه أن يجلس معه مباشرة ويكاشفهم وينظف ما يوغر في صدورهم من سوء ظن وشبهات.

«وَإِنْ ظَنَّتِ اَلرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَـهُمْ بِعُذْرِكَ وَاِعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى اَلْحَقِّ»(١).

ولم يقتصر الإمام على تطبيق هذا المنهج التربوي في أيام خلافته بل إنه عمل به في زمن خلافة غيره أيضاً فقد روي أن رجلاً اشتكى على الإمام علي عليه السلام في أيام عمر بن الخطاب وكان علي جالساً في المجلس فقال عمر: قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك. فقام معه وتناظرا ثم انصرف الرجل ورجع علي عليه السلام إلى محله فلاحظ عمر التغير في وجه علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن مالي أراك متغيراً أكرهت ما كان؟ قال: نعم، قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي، هلا قلت، قم يا علي فاجلس مع خصمك فاعتنق عمر علياً وجعل يقبّل وجهه وقال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور(٢).

٢ ـ النهي عن سوء الظن والإصغاء إلى النميمة:

إن حمل كلمات الآخرين ومواقفهم على المحامل السيئة وتقبل الأخبار

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٥٣ عهد الإمام إلى مالك الأشتر.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج١٧، ص٧٠، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم المقدسة ١٤٠٤هـ، ط٢.

المسيئة للآخرين ظاهرتان غير صحيتين نهى عنهما أميرالمؤمنين وهما ناشئتان عن ضيق الصدر ومحدودية وسطحية التفكير وعدم التعمق والتدبر في العواقب السيئة التي ينتجها الاستعجال في الحكم على الناس.

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام:

«**لاَ تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءاً وَأَنْتَ تَجِدُ لَـهَا فِي اَلْـخَيْرِ مُحْتَمَلاً**»(١).

وحيث ان الوالي والحاكم يكون عادة مركزاً يتجه إليه السعاة والوشاة من الذين لا يجدون سبيلاً إلى مآربهم إلا بالتسلق على أكتاف الآخرين وسحقهم لذلك نرى أميرالمؤمنين يحذر مالك الأشتر من هؤلاء ويقول:

«**وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ اَلنَّاسِ فَإِنَّ فِي اَلنَّاسِ عُيُوباً اَلْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ فَاسْتُرِ اَلْعَوْرَةَ مَا اِسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ أَطْلِقْ عَنِ اَلنَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لاَ يَصِحُّ لَكَ وَلاَ تَعْجَلَنَّ إِلى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ اَلسَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ**»(٢).

أي إن على الوالي أن ينتبه ان هناك أفراداً يريدون أن يشدوا عقد الأحقاد بين الناس ويزرعوا بينهم البغضاء، فعليه أن يحل هذه العقد ويجعلها أنكاثاً... وأن يستر العورات والذنوب فإنّه أقرب إلى مصلحة المجتمع من إشاعتها ونشرها وأن لا يفتح أبوابه للساعين في تسقيط الناس لأن ضرر تكذيبهم إن

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٣٦٠.

(٢) نهج البلاغة الكتاب ٥٣.

كانوا صادقين أقل بكثير من ضرر تصديقهم إن كانوا كاذبين فكيف والإمام يصفهم بالغش وإن تشبهوا بالناصحين، أي حتى ان الصادق منهم في خبره فهو بمنزلة الكاذب والغاش في نيته وقلبه، وإن حسن الفعل إنما يكون حسناً إذا اقترن بحسن الفاعل وصدق نيته.

٣ـ السيطرة على الغضب ومقابلة الإساءة بالإحسان :

إذا خرج الغضب من سيطرة الإنسان فإنّه سيكون كالنار التي تحرق وشائج المحبة بين الناس ولذلك فقد وصفه أميرالمؤمنين عليه السلام في كتابه لحارث الهمداني قائلاً: «**وَاِحْذَرِ اَلْغَضَبَ فإنّه جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ**»(١)، ونحن نعلم إن أهم عمل لإبليس هو انه يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس.

ومنهج علي يجعل الجهاز الإدراكي عند الإنسان يرقى ويتكامل إلى درجة انه يرى المحبة الإنسانية أعظم لذة يستمرئ لأجلها ما يراه الآخرون مرارة.

فإذا كان الغضب مراً لا يتجرعه من تربّت جوارحه وجوانحه خارج حصن الولاية العلوية، فإن الناهلين من معين الولاية، إذا ما واجهوا حالة الغضب فإنهم يتجرعونه وكانه كأس شراب لذيذ ـ لأن أمير القلوب والأرواح والنفوس قد علمهم ذلك حيث يقول لولده الحسن عليه السلام : «**وَتَجَرَّعِ اَلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً**»(٢)، ان علياً يقول لأتباعه أنك بين خيارين اما أن تدع الغضب يأخذ بقيادك ويفقدك زمام نفسك فيقودك جند الشيطان إلى ما لا تحمد عقباه وتخسر نفسك وغيرك.

---

(١) نهج البلاغة الكتاب٦٩.

(٢) نهج البلاغة الكتاب٣١.

أو أن تمسك بغضبك وعندها سوف ترى انك عندما أمسكت بغضبك لم تمسك إلا بكأس المحبة والمودة...

فافتح عين بصيرتك وانظر إلى علي كيف يزن الأُمور بحقائقها فيصف لك مقابلة الإساءة بالإحسان وكأنها هدية وهبها المسيء إلى المحسن والظالم إلى المظلوم لا العكس... فهو يقول لابنه الحسن عليه السلام: «**وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ وَلاَ يَكُونَنَّ عَلَى اَلأَسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى اَلأحْسَانِ وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ فإنّه يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ**»[1].

أي انّ الإنسان الذي يتعامل مع الأُمور بالمنطق العلوي ينظر إلى الخاطئ والمسيء والظالم ـ والمقصود ظلم الاخوان والأقارب والجيران لا ظلم الطغاة والجبابرة الذي يزداد مع سكوت الأُمّة ـ مسكين غافل عن أنه يضر نفسه ويريق شراب الأخوة والمحبة ليملأ صدره بدخان الغضب الذي أوله جنون وآخره ندم والمسيء ينفع غيره إذا استطاع الغير ان يفتح صدره لأمينه ويتقبل هديته فيحسن إليه فيحصل على وسام الحظ العظيم كما وصفه القرآن الكريم حين قال: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْـحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الَّذِي بَيْنَك وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ (فصلت: ٣٤ـ٣٥).

وأيّ منفعة أعظم من أن تقلب المسيء من عدو إلى ولي حميم وتكرع كأس المحبة وتنال الحظ العظيم...

---

(١) نفس المصدر.

ولو تدبرت في منهج التواصل العلوي المستمد من القرآن الكريم رأيت ان المجتمع العلوي كالجسم القوي السليم الذي لو أصابه مرض أو تعرض لجسم غريب فإن جهازه الدفاعي سوف يتعامل بسرعة مع هذه الحالة العارضة بحيث يحيط بها ليمنعها من إضعاف البدن فحسب بل ليجعل منها سبباً لمناعة البدن وقوته وصلابته. ومن هنا جاءت فكرة الأمصال واللقاح التي اخترعها لويس باستور حيث انتهى بعد تجارب عديدة على الحيوانات إلى ان تزريق الجسم بجرعة من المكروبات الضعيفة يحفز جهاز المناعة في الجسم فترتفع درجة المناعة عند الإنسان في مقابل المكروبات...

وجسم المجتمع الإيماني العلوي تتعامل أجزاؤه السليمة مع حالات الخطأ والإساءة وتقوى مناعة المجتمع ضد أمراض التفرقة والتباغض والتشتت كما في الجسم التكويني... فتحول العدو إلى صديق والعداء إلى صداقة ولذلك يضع علي المنهج التالي للتعامل مع الأخطاء.

«اِحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى اَلصِّلَةِ وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اَللُّطْفِ وَاَلْـمُقَارَبَةِ وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى اَلْبَذْلِ وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى اَلدُّنُوِّ وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اَللِّينِ وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى اَلْعُذْرِ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أو أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ وَاِمْحَضْ أَخَاكَ اَلنَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أو قَبِيحَةً وَتَجَرَّعِ اَلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فإنّه يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فإنّه أَحْلَى اَلظَّفَرَيْنِ»[1].

(١) نفس المصدر.

فيا دعاة المحبة والسلام هل سمعتم أو رأيتم إماماً أو قائداً لا يألُ جهداً ولا يترك سبيلاً إلا ويسلكه من أجل تغيير مخالفيه ومعارضيه وأعداءه إلى أحباب وأخوة؟ انه لا يفكر أبداً بالقضاء على أعدائه... وانه يستثمر جميع الوسائل العلمية من أجل ثنيهم عن العداء... يقبضون أيديهم فيبسط لهم يده، يبتعدون عنه فيدنو لهم، يشتدون عليه فيلين لهم، يجرمون في حقه فيغضي عنهم ويلتمس لهم العذر، ويغلظون عليه فيلين لهم... فإذا ما أثمر الفضل والإحسان فإن ذلك لديه هو الظفر الأصلي والنصر الأهنأ.

ولأجل هذا فإن الميزان العلوي يزن الرجال بقدرتهم على كسب الإخوان... وإن العجز عن جذب الناس عجز وإعياء وفشل والأشد عجزاً وفشلاً هو ذلك الذي لا يستطيع أن يحافظ على حبل المحبة والصداقة... قال عليه السلام: «**أَعْجَزُ اَلنَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اِكْتِسَابِ اَلأَخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ**»(١).

ويريد علي من اتباع منهجه أن لا تفارق البسمة شفاههم والبشاشة وجوههم وإذا كان هناك ما يستدعي الحزن فعليهم أن يخفوه في صناديق صدورهم لأن الناظر إذا نظر إلى الوجه الكئيب العابس فإنّه يقرأ فيه غالباً رسالة الإعراض والصدود...

لهذا قال عليه السلام في صفة المؤمن: «**اَلْـمُؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً يَكْرَهُ اَلرِّفْعَةَ وَيَشْنَأُ اَلسُّمْعَةَ**»(٢).

وتكتمل صورة مجتمع المحبة والوئام الذي يأمر علي شيعته بتشكيله عندما

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٤.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٣٣٣.

يقول لهم: «**خَالِطُوا اَلنَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ**»[1].

وهذا لا يأتي إلّا بأن يكون الإنسان العلوي ذا شخصية قوية جذّابة ينثر بذور المحبة أينما حلّ وأينما ذهب وأن يكون مباركاً أينما كان...

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٠.

نظم الأمر

(التنمية الادارية):

لم يأت علي إلى الأرض ليعيش سنوات عمره ويرحل فيغلق ملف حياته كسائر الراحلين، جاء علي ليصنع بحياته الصراط المستقيم للحياة.

ولذلك لم تكن مواقف علي في حياته تتجه نحو تحقيق المكاسب الجزئية والأهداف المحدودة وإنما كانت ترسم معالم الطريق المقبل لجميع البشرية.

ولذلك لم تكن وصيته عهدية أو تمليكية كسائر الوصايا... التي تنصب على الهموم الصغيرة والأهداف المحدودة كرعاية ذريته وأقاربه أو تخليد ذكر أو عمل خيري يجلب له الثواب...

كانت وصية لجميع الأمة... وقد أفرغ فيها همومه الكبرى وهو يعيش آخر لحظات حياته. ورسم بها الخارطة الجامعة والمانعة لتحقيق أهدافه التي لم يستطع أن يحققها بشخصه في حياته... لكنه أعطى نفسه من أجلها... خرجت روح علي من بدنه المثخن بالجراح والمكتوي بالآهات والزفرات لأجل الحق، ولم يترك علي البدن المادي ليتعلق بالبدن البرزخي ويكتفي بأن يتقلب في نعيم البرزخ، فعلي أعلى من أن يحيط به عالم مثال أو برزخ... وإنما انتقلت روح علي

إلى أهدافه، فالأهداف أجسام العظماء تنتقل إليها أرواحهم بعد تركها أبدانهم... فيكونوا أحياء بحياة أهدافهم... وعلي حي بنهج البلاغة الذي أودع فيه أهدافه، فإذا رأيت نهج البلاغة فقد رأيت علياً قائداً وقدوة ومثالاً وأسوة وخلاصة نهج البلاغة في وصية علي للامة في آخر لحظات حياته وخلاصة هذه الوصية في قوله: «أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم..

فهذه الوصية تحمل النفس العلوية التي تطفح بالنور والعطاء، إنّها وصية عهدية إلى جميع من وصلته، بأن يكونوا علويين في فكرهم وقولهم وعملهم... وهي تمليكية لكل من رآها عن إيمان واعتقاد راسخ لا تملّكه الدينار والدرهم، ولكن تهب له النور الذي يمشي به في الناس، انّه يقول في هذه الوصية مخاطباً ولديه الحسن والحسين عليهما السلام.

«أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى الله وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ»(١).

انّه وبعد أن يوصي الحسنين بتقوى الله وأن لا يطلبا الدنيا وإن طلبتهما وجاءت نحوهما تمشي على استحياء، ولا يأسفا عليها إن أدبرت، وأن ينصبا نفسيهما في مقام المدافع عن الحق في القول والعمل، وأن يكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

ويعود مرة أُخرى يؤكد أنّ هذه الوصية ليست للحسنين فقط، وإنّما هي لجميع أهله بل لجميع الأُمّة، وخلاصة وصيته هي تقوى الله ونظم الأمر وصلاح ذات البين.

---

(١) نهج البلاغة الكتاب٤٧.

لقد كان علي كثيراً ما يؤكد في خطبه أثناء حياته على التقوى... وكان يتولى نظم أمور الأُمّة وصلاحها بنفسه واليوم يريد من الأُمّة أن تقوم بهذا الدور من بعده...

ولا شك ان الأُمّة التي تقول انها علوية هي الأُمّة التي تنفذ وصية إمامها وقائدها وتنفذ هذه الوصية يتم بتنفيذ التقوى والنظم والصلاح...

الأمة العلوية هي الأُمّة المنظمة التقية هي الأُمّة المدنية لكن لا مدنية الهوى والغرائز وانما مدنية التقوى... انها أمة المؤسسات التي تسودها التقوى...

اللذات العليا

وهكذا يربي علي النفوس كي لا تكون مكبة على وجوهها فلا تنظر ولا تدرك إلا إلى اللذات المتسافلة وإشباع المعدة والغريزة أو إشفاء الغيظ بتحطيم الآخرين أو نشوة الرئاسة والتسلط بالتسلق على الضعفاء والفقراء والإصغاء إلى مدح الغاوين والكذابين وضعفاء النفوس بل كي ترفع النفوس رأسها وتوجه قنواتها نفسها الإنسانية نحو الأعلى لتستقبل الأنوار ويشرق ضوءها وتبتهج بخدمة الحق وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وهذا الكلام قد يبدو غريباً لأن البشرية غريبة عن النهج العلوي وبعدها عن هذا النهج جعل جهازها الإنساني معطلاً عن العمل...

والولاية العلوية هي باب مدينة العلم النبوية أي هي المفتاح والمدخل إلى رحمة العالمين المهداة للبشرية والتي بها يصل البشر إلى أعلى درجات الإنسانية بالوصول إلى أعلى مظاهر الرحمة الإلهية في الأرض...

وإذا كان حاتم الطائي يذبح فرسه العزيز من أجل أن ينال لذة إكرام الضيف وهي لذه فطرية إنسانية تفعلت في نفس حاتم بولاية العرف والقبيلة ـ وهي ولاية تفتقد إلى الرؤية الكونية والمعرفة والأهداف العليا ويشوبها الإفراط

والتفريط والتعصب... .فكيف بمن أخضع نفسه لولاية من يرى الله في كل شيء ومن كشف له الغطاء فأدرك جميع الأشياء على حقيقتها: «ولو كشف لي الغطاء ما ازدوت يقيناً» أليس من يربي نفسه في كنف هذه الولاية سوف يضحي بكل شيء من أجل أهداف الإنسانية العليا؟... وتتحول لذته من التلذذ بالأخذ والغنيمة إلى التلذذ بالعطاء والخدمة، يقول الإمام لعبد الله بن عباس: «**فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أو شِفَاءُ غَيْظٍ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ وَإِحْيَاءُ حَقٍّ وَ لْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ اَلْـمَوْتِ**»[1].

الأُمّة العلوية هي الأُمّة المنظمة في جميع شؤونها والتي يحيط بها حصن التقوى وتملأها المحبة والسلام...

والتقوى تعني كمال النفس والروح والقوة التي بها يسيطر الإنسان على نفسه كي لا ينحدر مع الغرائز والنزوات الطائشة...

والنظم هو كمال العقل والتدبير بوضع كل شيء في موضعه المناسب واتباع أقصر الطرق نحو المصلحة العامة...

الأمة العلوية هي التي تعيش أعلى درجات الكمال في النفس والروح والعقل والقلب. انها مقومات الحضارة الإنسانية المتكاملة...

ويختصر الإمام أركان التنمية البشرية في هذه العبارة، فالتقوى هي تنمية الإرادة الإنسانية وقد وصفها الإمام بقوله: «**اِعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّ اَلتَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ وَاَلْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ لاَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَلاَ يُحْرِزُ مَنْ لَـجَأَ إليه أَلاَ وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ اَلْـخَطَايَا وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ اَلْغَايَةُ اَلْقُصْوَى**»[2].

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٦٦.

(٢) نهج البلاغة الخطبة١٥٧.

فهي المصلحة الإنسانية العالية التي تجعل الفرد والمجتمع في قلعة محصنة لا يمكن للعدو أن يخترقها، فمجتمع التقوى قوى الإرادة لا يستسلم أمام اغراءات المال والسلطة والشهوات خلافاً للمجتمع الذي يرفع شعار أصالة اللذة والمنفعة فإنّه مجتمع خائر متميع يستطيع أعداؤه ان يقهروه بأن يسكروه بلذة ساعة ليستعبدوه دهراً طويلاً... والتقوى هي الدرع الذي يقي الإنسان من سطوة الخطايا والأهواء ووصفها قائد المتقين بأنها المقود الذي به يسيطر الإنسان على حركته في الطريق الإنساني المعبد ويحفظها من أن تقع في مهاوي الذل والهوان فقال: «**أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله بِتَقْوَى الله فَإِنَّهَا اَلزِّمَامُ وَاَلْقِوَامُ فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا تَؤُلْ بِكُمْ إلى أَكْنَانِ اَلدَّعَةِ وَأَوْطَانِ اَلسَّعَةِ وَمَعَاقِلِ اَلْحِرْزِ وَمَنَازِلِ اَلْعِزِّ**»[1]. وفي موضع آخر بين الإمام ان التقوى هي القوة التي تجعل الإنسان يملك قياده ويحافظ على نفسه من الانهيار والانحدار... يقول عليه السلام: «**أَلاَ وَإِنَّ اَلتَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ اَلْجَنَّةَ**»[2].

فإذا استطاع المجتمع ان يبني حصن التقوى ويمسك بأزمة أهوائه فهناك على المجتمع ان ينظم أمره في إطار التقوى... فيبني المؤسسات والمنظمات والأحزاب ويشكل المجموعات والكتائب والأفواج... والشركات والمعامل والتعاونيات...

وحيث أن التقوى هي الإطار الذي يحيط بهذه التجمعات لذلك فإن انتظام هذه المجموعات إنما يكون لأجل التنظيم لا لأجل التكتل والاصطفاف بوجه الآخر وكم هو الفارق الكبير بين اختلاف الآراء الذي يتفاعل في إطار

---

(١) نهج البلاغة الخطبة١٩٥.

(٢) نهج البلاغة الخطبة١٦.

التقوى لينتهي إلى المصلحة الكبرى للجميع وبين اختلاف الآراء الذي ينتهي إلى النزاع على المصالح الصغرى للمختلفين، ان المجتمع لا يمكن ان يحقق أهدافه بالجهود الفردية... فلابد أن ينتظم أفراده على شكل مجموعات، الأسرة إلى القبيلة في المجال الاجتماعي والمؤسسة والمنظمة والنقابة في المجال المدني والحزب والتيار والائتلاف والتحالف في المجال السياسي.

فإذا انتظمت هذه المجموعات في إطار التقوى فإنها سوف تعمل جميعاً لمصلحة المجتمع العليا وسوف يكون اصطفافها لأجل نظم الأمر لا لأجل ضم الأمر والاستحواذ عليه وعندما تكون مؤسسات المجتمع المدني والتنظيمات السياسية قد أنشئت لأجل نظم الأمر فإذا اختلفت طرحت أفكارها للتدوال والتلاقح لأجل الوصول إلى أعلى درجة من النظم ومهما اتسعت فجوة الاختلاف فانها لا تتحول إلى خلاف ونزاع...

لأن نظم الأمر لا يسمح لاتباعه اجتياز الخط الأحمر وهو المصلحة العليا للأمة فكل اختلاف لابد أن ينتهي إلى أحسن الحلول الممكنة...

وعند جدار التقوى والمصلحة العليا تتحطم جميع نزوات التحزب والتكتل والانفراد وتتراجع كل الآراء المخالفة، وبذلك ندرك ان قائد الإنسانية علياً كم كان عميقاً في نظرته إلى المجتمع والنهج القيادي الذي يصلحه. فهاهو يتحدث معه في آخر حديث له في حياته وهو يعالج سكرات الموت فيجعل نظم الأمر إلى جانب التقوى وصلاح ذات البين... أي ان نظم الأُمور يجب أن يكون محاطاً بجدار التعالي عن الأهواء ومقترناً دائماً بالمحبة والمودة والوئام...

الديمقراطية المسؤولة

ان وصية علي للأمة بأن يكون نظم الأمر في إطار التقوى يدل علي أن تنظيم أمور الناس عبر آليات الشورى بالانتخاب ﴿**وأَمْرُهُمْ شُوْرَى بَيْنَهُم**﴾ إنما يتم في اطار الموازين الإلهية، فالناس تنظم أمرها بانتخاب القوى الثلاث وسائر المؤسسات وفقاً لما تفرضها عليهم التقوى الإلهية الملازمة للمصلحة الإنسانية دائماً وتترتب شؤون حياتها طبقاً للخلافة الإلهية للإنسان في الأرض وبما أنها حاملة الأمانة ومسؤولة عن إصلاح الأرض وإعمارها وإقامة الصفات والأخلاق الإلهية فيها وإظهار قيم العدل والرحمة والعلم والجود والوقوف بوجه الظلم والجهل والطغيان...

وبذلك نفهم أن صاحب الولاية الكبرى التي بها يستقيم أمر الأُمّة على طريق الله إلى يوم القيامة عندما يؤكد على الأُمّة في آخر كلماته معها على اقتران تنظيم أمورها بالتقوى وصلاح ذات البين إنما وضع أنامله على المائز الأساسي بين النهج الإلهي العلوي في الحياة والمنهج المادي الوضعي... فالأول ينظم حياته بالاستناد إلى الهدى والثاني ينظم حياته بالاستناد إلى الهوى... وهذا هو توصيف أميرالمؤمنين للمصلح المنتظر الذي يملأ الأرض قسطاً عدلاً... حيث

قال: «**يَعْطِفُ اَلْـهَوَى عَلَى اَلْـهُدَى إذا عَطَفُوا اَلْـهُدَى عَلَى اَلْـهَوَى وَيَعْطِفُ اَلرَّأْيَ عَلَى القرآن إذا عَطَفُوا القرآن عَلَى اَلرَّأْيِ**»[1].

ويقول ابن ميثم البحراني في شرح هذه العبارة: «أي يرد النفوس الحائرة عن سبيل الله المتبعة لظلمات أهوائها عن طرقها الفاسدة ومذاهبها المختلفة إلى سلوك سبيله واتباع أنوار هداه وذلك إذا ارتدت تلك النفوس عن اتباع أنوار هدى الله في سبيله الواضح إلى اتباع أهوائها في آخر الزمان... ويردّ كلّ رأي رآه غيره إلى القرآن فيحملهم على ما وافقه منها دون ما خالفه وذلك إذا تأول الناس القرآن وحملوه على آرائهم وردوه إلى أهوائهم كما عليه أهل المذاهب المتفرقة من فرق الإسلام كل على ما خيل إليه، وكل يزعم ان الحق الذي يشهد به القرآن هو ما رآه وانه لا حق وراءه سواه...[2].

والبشرية مهما ترقت في نظم أمرها وطورت إنتاجها ورفعت مستوى معيشتها المادية فإنها إذا لم تكن في طريق الهدى فسرعان ما تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً ويخر السقف على رأسها.

فالعملية الديمقراطية التي بها تنظم الشعوب أمرها مجردة عن التقوى لا تحقق الأهداف المتوخاة منها وهي تحقيق مصلحة الأكثرية... لأنّ الناخب الذي لا يهتدي بمصباح التقوى سوف ينتخب ما تسوقه إليه أهواؤه أو يدفعه إليه صخب الإعلام والدعايات.

والمنتخب إذا لم يمسك به زمام التقوى للالتزام بما وعد به فإنّه سرعان ما يقلب ظهر المجن لجمهوره ويشتغل عن خدمتهم بترتيب أوضاعه الخاصة.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة١٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ج٣، ص١٦٨ ــ ١٦٩.

أمّا تنظيم الأمر في المدرسة العلوية إذا ما قامت به الأُمّة عبر آليات الانتخاب والتشاور ورأي الأكثرية فإنما تقوم به لا لأجل مصالحها الصغرى وانما تقوم به لتؤدي دور الخلافة الإلهية في الأرض فالناخب والمنتخَب مسؤولان في النظام العلوي للحياة حتى عن البقاع والبهائم... «اِتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ اَلْبِقَاعِ وَاَلْبَهَائِمِ[1]» فهما ينطلقان من وحي المسؤولية والأمانة وهذه المسؤولية لا تؤدى إلا بخلافة الله أي إظهار صفاته وتحقيق مراده في الأرض.

فتنظيم الأمر مع التقوى هو بعبارة أخرى الديمقراطية التي يجب أن تتم في إطار الخلافة الإلهية.

وحول ذلك يقول المفكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر: «فالجماعة البشرية التي تحمل مسؤوليات الخلافة على الأرض انما تمارس هذا الدور بوصفها خليفة عن الله ولهذا فهي غير مخولة أن تحكم بهواها أو باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف وانما تحكم بالحق وتؤدي إلى الله تعالى أمانته بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده وبهذا تتميز خلافة الجماعة بمفهومها القرآني والإسلامي عن حكم الجماعة في الأنظمة الديمقراطية الغربية فإن الجماعة في هذه الأنظمة هي صاحبة السيادة ولا تنوب عن الله في ممارستها ويترتب على ذلك أنها ليست مسؤولة بين يدي أحد وغير ملزمة بقياس موضوعي في الحكم بل يكفي أن تتفق على شيء ولو كان هذا الشيء مخالفاً لمصلحتها ولكرامتها عموماً أو مخالفاً لمصلحة جزء من الجماعة وكرامتها ما دام هذا الجزء قد تنازل عن مصلحته وكرامته.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة١٦٧.

وعلى العكس من ذلك حكم الجماعة القائم على أساس الاستخلاف فإنّه حكم مسؤول والجماعة فيه ملزمه بتطبيق الحق والعدل ورفض الظلم والطغيان وليست مخيرة بين هذا وذاك)[1].

وكما ان التقوى وصلاح ذات البين تحددان نظم الأمر في الطريق الصحيح الذي يحقق مصلحة الجميع ويوطد عرى المحبة بين الأُمّة كذلك فإنهما يوسعان نظم الأمر كي يشمل جميع نواحي الحياة لأن ترك أي ثغرة في المجتمع من النقص والخلل والإرباك أو عدم اتقان أي عمل يعد تقصيراً في مراعاة التقوى ويترك أثره على العلاقات الاجتماعية أيضاً.

وقد ثبت منذ القدم فشل النظام الذي يستند إلى أغلبية آراء الناس الناشئة من الرغبات والأهواء وبعيداً عن الموازين العقلية والشرعية وقد تنبه المفكرون الغربيون إلى الخلل الكبير في الديمقراطية الغربية منذ أيامها الأولى حتى انه نقل عن سقراط قوله: «أليس عبادة للوهم ان مجرد الأغلبية تكون سبباً للعقل؟ ألسنا نرى في جميع أرجاء العالم ان حشود الجماهير هي أكثر بلاهة وعنفاً وظلماً من أفراد الناس وان بمقدار التربية والتعليم فقط يمكن أن تجعل فرقاً بينهم وبين الناس الآخرين[2].

وان مؤسس النظام الديمقراطي المعاصر وصاحب نظرية وكتاب (العقد الاجتماعي) وهو العالم الفرنسي الشهير جان جاك روسو، والذي كان يرى بأن ما تصوت له الأغلبية فهو الحق الصالح للشعوب قد غير رأيه في آخر حياته

---

(١) الإسلام يقود الحياة، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء:المفكر الشهيد محمدباقرالصدر ص١٣٠.

(٢) انظر كتاب الديمقراطية الإسلامية مقالة الشيخ محمد هادي معرفة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ـ بيروت.

وراح يصرح بأن الحرية البشرية تحتاج إلى نظام ينظمها. وان الحرية امتحان عسير وعطية إلهية تحتاج إلى مجاهدة النفس»، ويقول: «إن الحرية طعام قوي، ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين، انني أضحك من تلك الشعوب المنحطة التي تثور لمجرد كلمة من متآمر دساس والتي تجرؤ على التحدث عن الحرية وهي تجهل كل الجهل ما تعنيه والتي تتصور إنه لكي يتحرر الإنسان يكفي أن يكون ثائراً متمرداً، أيتها الحرية المقدسة السامية ليت هؤلاء المساكين يعرفوك حق المعرفة، ليتهم يتعلمون أي ثمن يبذل للظفر بك وليت في الإمكان تعليمهم ان قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل»[1].

والأعجب من ذلك ان روسو الذي ندد من قبل بالملكية الخاصة معتبراً إياها أصلاً لكل الشرور نصح البولنديين أن لا يدخلوا في تغيرات فجائية على دستورهم وان يحتفظوا بملكهم المنتخب على أن يقيدوا حق النقض المطلق. وكرّس الاقطاعية البولندية واقترح فرض الضرائب على جميع الأراضي على أن تترك حقوق الملكية الراهنة دون مساس بها ثم أعرب عن أمله أن تلغي القنية (نظام الرق) يوماً ما ولكنه لم يدع إلى إنهائها في وقت قريب فهذا في رأيه يجب أن يؤجل إلى أن يتاح للقن مزيد من التعليم وقد أكد ان كل شيء رهن بنشر التعليم وتعزيز الحرية بأسرع من تعزيز الذكاء والأخلاق معناه فتح الباب على مصراعيه للفوضى وتقسيم البلاد[2].

فهكذا يصل مؤسس الديمقراطية وعلم الاجتماع الأوروبي إلى ما أكد عليه إمام الإنسانية على أميرالمؤمنين قبل روسو بقرون وهو ان الحرية

---

(١) انظر قصة الحضارة، ويل دوراينت: ج٤٢، ص٣٦٧ــ ٣٦٨، دار الفكر بيروت.

(٢) نفس المصدر.

والديمقراطية ونظم أمور الناس يجب أن يكون في إطار العقل والشرع والأخلاق الإلهية وان رأي الناس لوحده لا يمكن أن يكون مصدر الحق وان كانوا أكثرية لأن رأي الأكثريه لوحده لا يعني مصلحتهم الواقعية.

ومن الظريف ان روسو عندما غيّر من رؤيته حول الحرية والديمقراطية فإنّه عاد إلى الدين وراح يحضر في الصلاة الكاثوليكية ويسمع ابتهالات الرهبان فيقول آه ما أسعد الإنسان الذي يستطيع أن يؤمن...[1].

ويمكن لقارئ نهج البلاغة أن يرصد معالم النظم في شؤون الحياة المختلفة من خلال خطب أميرالمؤمنين مع الأُمّة وتعليماته لولاته وذلك في المواضع التالية:

١ ـ آلية تصدي الإمام العادل للحكومة (النظم السياسي والإداري):

هناك مرحلتان لابد من اجتيازهما كي يكون الإمام حاكماً على الأمة.

المرحلة الأولى: مرحلة شأنية الحكومة وهي مرحلة توفر صفات الحاكم الإلهي في الفرد المرشح لحكومة الأُمّة أي ان يكون المرشح من شأنه أن يكون حاكماً وهنا يقول أميرالمؤمنين: «**إِنَّ أَحَقَّ اَلنَّاسِ بِهَذَا اَلأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ الله فِيهِ**»، فالذي يتصدى للحكومة والخلافة هو الأقوى والأكفأ والأعلم بالأحكام الإلهية... وهذه المواصفات تارة تكون معلومة بالشخص بواسطة التعيين المباشر كما في النبي والأئمة الطاهرين الذين تم تعيينهم من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله... وتارة تكون معلومة بنحو كلي ومفهومي له عدة مصاديق في كل

(١) انظر نفس المصدر: ص٣٧٠.

زمان كما في المرجعية والقيادة الفقهية للأمة التي تتوفر مواصفاتها بنحو متقارب في عدد من الاشخاص.

الثانية: مرحلة الفعلية وهي مرحلة البيعة والانتخاب فإذا كان الإمام شخصاً واحداً توفرت فيه المواصفات فعلى الأُمّة أن تبايع هذا الإمام ليتحول من مرحلة الشأنية إلى مرحلة الفعلية ويتصدى لشؤون الحكومة وإذا كان مرجعاً أو قائداً مردداً بين عدد من الاكفاء والجامعين للشرائط فعلى الأُمّة إنتخابه. وحول كيفية انعقاد الأُمّة بالبيعة والانتخاب يقول عليه السلام: «**لَئِنْ كَانَتِ اَلأمَامَةُ لا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ اَلنَّاسِ فَمَا إلى ذَلِكَ سَبِيلٌ وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ**»[1].

أي ان عملية البيعة والانتخاب تتم بواسطة المشاركين فيها وبعد أن يفتح المجال لمشاركة الجميع وبعد انتهاء العملية لا يحق لمن بايع أو انتخب أن يرجع وكذلك لا يحق لمن لم يشارك في العملية أن يعترض ويتمرد ويختار لنفسه حاكماً آخر.

وهنا أمر يحتاج إلى التوضيح وهو أن البيعة لا تهب للإمام الشأنية والشرعية وصفة الإمامة فالإمام واجد لها قبل البيعة... وان ما تفعله البيعة هو انها تؤكد الإمامة في أعناق الناس وتجعلها فعلية وجاهزة للتنفيذ بإعلان الناس للإمام بالبيعة انهم حاضرون لطاعة أوامره وأحكامه. والإمام لا يتصدى للحكم إلا بعد البيعة وإعلان الأُمّة استعدادها لقبوله حاكماً لأنه يريد أن يحكم بالحق ويقيم العدل والقسط وهذا يحتاج إلى قوة وحجة إثباتية من نفس الناس

---

(١) نهج البلاغة الخطبة١٧٣.

مضافاً إلى ما يتمتع به الإمام من حجج وأدلة ثبوتية وهي مواصفات الإمام والحكومة الذاتية أو المكتسبة التي يتصف بها الإمام وبذلك تفهم عبارات الإمام في نهج البلاغة التي يتبين فيها مقام الشأنية وأحقيته بالخلافة كقوله عليه السلام في الخطبة الشقشقية: «**أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلاَنٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ اَلْقُطْبِ مِنَ اَلرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي اَلسَّيْلُ وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ اَلطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً**» وقوله عليه السلام في نفس الخطبة عندما يذكر الشورى السداسية التي عينها الخليفة عمر وعين علياً كواحد منهم... فهنا يعلق الإمام على هذا المجلس السداسي ويقول: «**فَيَا للهَ وَلِلشُّورَى مَتَى اِعْتَرَضَ اَلرَّيْبُ فِيَّ مَعَ اَلأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلى هَذِهِ اَلنَّظَائِرِ**»(١).

ولكن الإمام مع حيازته لأعلى مواصفات الإمامة من القوة والشجاعة والأعلمية التي جعلته ملجأ للمعضلات العلمية والفقهية التي كانت تواجه الخلفاء، مضافاً إلى قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله. لكن مع ذلك كله عندما تركته الأُمّة وذهب إلى غيره رأى الصبر على هذه المحنة الطويلة أحجى فصبر وفي العين قذى وفي الحلق شجى... ولم يتحرك لإرغام الناس على قبول إمرته وهي بعد لم تستعد فكرياً وروحياً لقبولها...

وللإمام كلام آخر يخاطب به العباس بن عبد المطلب وأبا سفيان وقد طلبا منه أن يبايعاه على الخلافة فهنا يردهما الإمام عليه السلام وقد علم الإمام ان مثل هذه البيعة الانفعالية البراجماتية العشائرية ليست هي البيعة التي يريدها قاعدة لإقامة حكومته العادلة فيقول: «**أَيُّهَا اَلنَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ اَلْفِتَنِ بِسُفُنِ اَلنَّجَاةِ وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ اَلْـمُنَافَرَةِ وَضَعُوا تِيجَانَ اَلْـمُفَاخَرَةِ أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ أو اِسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ مَاءٌ**

(١) نهج البلاغة الخطبة٣.

آجن وَلُقْمَةٌ يغص بِهَا آكِلُهَا وَمُجْتَنِي اَلثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ»[1]، أي ان الحكومة العلوية العادلة تحتاج إلى أمة تتحلى بقسط وافر من الوعي وثقافة العدل ومعرفة الإمام العادل وطاعته لأجل تحقيق المصالح العامة العليا للأمة ومن يريد أن يحكم بالعدل على أمة يتحكم في عقولها الجهل والتعصب للمصالح الخاصة فإن النتيجة سوف تكون عكسية... ولذلك فان الإمام العدل في مثل هذه الظروف يختار أن يكون مرشداً وناصحاً ومساعداً للأمة ولا يرغب أن يكون أميراً وحاكماً... ولذلك قال أميرالمؤمنين عليه السلام للناس لما أرادوا منه البيعة بعد قتل عثمان: «دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ لاَ تَقُومُ لَهُ اَلْقُلُوبُ وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ اَلْعُقُولُ وَإِنَّ اَلآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَاَلْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ وَاِعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أُصْغِ إِلى قَوْلِ اَلْقَائِلِ وَعَتْبِ اَلْعَاتِبِ وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[2].

أُنظر إلى الإمام يبيّن بوضوح انّ منهجه العادل في الحكم يحتاج إلى قاعدة تستوعب أوامر الإمام الصادرة من علمه الذي لا يدانيه أحد... لاسيما وانّ الأجواء التي صنعتها فترة الخلافة وخاصة خلافة عثمان هي أجواء غائمة والأرض أصبحت ملغمة وحبلى بالفتن والتعقيدات.

وفي هكذا حال فإن أساليب العلاج التي يريد الحاكم الجديد أن يتبعها تحتاج إلى قلوب تقوم بها وعقول تطيق تحملها ولذلك نرى الإمام لا يستجيب لطلب التصدي للخلافة لمجرد الاندفاع العاطفي من الأُمّة وانما يبين لهم برنامجه

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥.

(٢) نهج البلاغة الخطبة٩٢.

في الحكم ولا يستجيب إلا بعد أن يتم الحجة عليهم وبعد أن يبايعوه عن بينه وبصيرة تامة وقناعة كاملة حيث أنه يستطيع بعد ذلك ان يطبق برنامجه الذي لايقبل المساومةعلي العدل ولا أنصاف الحلول وانه بعد توليه الخلافة بهذا النحو من الشفافية الكاملة سوف يأخذ الكتاب بقوة ما لديه من علم ويعمل لأجل تحقيق مصالح كل الإنسانية ولن يصغي إلى قول القائل وعتب العاتب. وأما إذا لم يحصل الإمام على مثل هذه البيعة الواضحة المعالم والواجدة لعوامل القوة في الحكم فإنّه يفضل أن يبقى وزيراً أي مستشاراً ومساعداً ومرشداً للأمة في مسائلها العلمية ومشاكلها الاجتماعية فالأمير يرى ان الإنسان في أن يكون معلماً يتعلم منه الناس خير من أن يكون حاكماً لا يطاع.

ولأجل ذلك رفض الإمام البيعة المقدمة إليه من عبد الرحمن بن عوف في يوم الشورى والتي كانت مشروطة بالعمل بسيرة الشيخين بعد كتاب الله وسنة رسوله... فامتنع الإمام عن قبول هذا العرض وقال: «بل تبايعني على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي»، فعدل عنه إلى عثمان فاستجاب عثمان لهذا العرض ثم عاد عبد الرحمن إلى علي فأعاد قوله وفعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً فلما رأى ان علياً غير راجع عما قاله وان عثمان يستجيب بسرعة ودون شرط صفق على يد عثمان...[1].

ولم يقبل الإمام البيعة إلا من بعد ان أصر الناس على بيعته واعلنوا استعدادهم لطاعته ونصرته على تحقيق أهدافه في نصرة المظلومين والوقوف بوجه الظالمين وهذا ما أوضحه الإمام في الخطبة الشقشقية حين قال: «**لَوْ لا حُضُورُ اَلْـحَاضِرِ وَقِيَامُ اَلْـحُجَّةِ بِوُجُودِ اَلنَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ الله عَلَى اَلْعُلَمَاءِ أن لا يُقَارُّوا**

(١) انظر شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج١، ص١٨٨.

عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِـهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»(١).

وهكذا تتضح لنا ملامح النظام السياسي العلوي من كلماته المنيرة وسيرته في الوصول إلى الحكم فالحاكم يجب أن يكون واجداً لمؤهلات الحكومة قبل كل شيء والكفاءة وحدها لا تجعله حاكماً وإنّما ينبغي أن يصل إلى الحكم عن طريق البيعة والانتخابات التي يشارك فيها كل من يستطيع ان يدلى برأيه من الأمة... بعد أن يتعرف الناخبون على برنامجه الكامل وأهدافه الواضحة فتتم البيعة تحت أنوار المصارحة والمكاشفة التامة بين الأُمّة والإمام... لا أن يتم الانتخاب تحت وطأة العقل الجمعي والصخب الدعائي الذي تقوم بصناعته الأجهزة الإعلامية التي تغذيها رؤوس الأموال أو الكتل السياسية أو الوجوه المتنفذة التي اتفقت مع المرشح على أن تبيعه أصوات الناس في مقابل حفظ مصالحها عند الوصول إلى سدة الحكم كما يحصل اليوم في معظم الانتخابات التي تجري في الدول الغربية والمخدوعين بها.

٢ ـ النظم الاقتصادي:

يتمثل هذا النظم في الأسس التالية:

أ ـ ثقافة التكافل: تنظر المدرسة العلوية إلى ان المشكلة الاقتصادية ليست ناشئة من قصور الطبيعة في تلبية حاجات البشرية وانما هي من تقصير الإنسان نفسه الذي يستحوذ بعضه بالثروات ويمنع الآخرين منها اذ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ اَلأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ اَلْفُقَرَاءِ فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلّا**

(١) نهج البلاغة الخطبة٣.

بِمَا مَنَعَ بِهِ غَنِيٌّ وَالله تَعَالَى جَدُّهُ سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ»[1].

فالثقافة العلوية تجعل الغني يشعر انه مسؤول عن هذه الثروة التي حباه الله بها ليمتحنه ويختبره وانه ليس مطلق اليد في التصرف بأمواله كيفما شاء... يقول عليه السلام في خطبة الأشباح: «وَقَدَّرَ اَلأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا وَقَسَّمَهَا عَلَى اَلضِّيقِ وَاَلسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ اَلشُّكْرَ وَاَلصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا»[2].

ونعى الإمام فساد الزمان وبعد أهله عن الحق بقوله: «فَتَاهُمْ عَارِمٌ وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ وَعَالِـمُهُمْ مُنَافِقٌ وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ لاَ يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ وَلاَ يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ»[3].

ب ـ الضمان الاجتماعي: وهو دور الدولة في سد حاجات الفقراء والضعفاء من الموارد التي ترفد بيت المال كالزكاة والخراج والضرائب التي تفرضها الدولة على إحياء الأراضي.

وقد حذر المسؤولين عن الزكاة والصدقات من التقصير بحث الفقراء فكتب إلى أحدهم قائلاً: «وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ اَلصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَحَقّاً مَعْلُوماً وَشُرَكَاءَ أهل مَسْكَنَةٍ وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ وَإِلّا فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ اَلنَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ وَبُؤْسًا لِـمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ الله اَلْفُقَرَاءُ وَاَلْـمَسَاكِينُ وَاَلسَّائِلُونَ وَاَلْـمَدْفُوعُونَ وَاَلْغَارِمُ وَاِبْنُ اَلسَّبِيلِ وَمَنِ اِسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي اَلْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ فِي اَلدُّنْيَا اَلذُّلَّ وَاَلْخِزْيَ وَهُوَ فِي اَلآخِرَةِ أَذَلُّ

(١) نهج البلاغة الحكمة ٣٢٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٩١.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٢٣٣.

وَأَخْزَى وَإِنَّ أَعْظَمَ اَلْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّة وَأَفْظَعَ اَلْغِشِّ غِشُّ اَلأَئِمَّةِ وَاَلسَّلاَمُ»[1].

ج ـ تربية المجتمع المنتج ومحاربة الكسل والاتكالية: ومن جهة أخرى فقد وضع الإمام برنامجاً لعلاج الفقر بواسطة ترويج ثقافة العمل والانتاج واعتبار الفقر عيباً ومنقصة. فهو عليه السلام يقول لابنه محمد بن الحنفية «**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ اَلْفَقْرَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ فَإِنَّ اَلْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ**»[2].

وقال عليه السلام: «**اَلْفَقْرُ اَلْمَوْتُ اَلأَكْبَرُ**»[3].

وفي حديث للإمام عليه السلام: «**من وجد ماءً وتراباً ثم افتقر أبعده الله**» أي انّ الكسل والتهرب من العمل والانتاج واستثمار الثروات موجب للطرد من رحمة الله...

وما أعظم ما رُوي عن الإمام عليه السلام قوله: «**استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره**»[4].

وما أحوج الأُمّة اليوم إلى هذه الثقافة العلوية التي تنظم أمرها بإصلاح ثقافتها من الميل إلى الكسل والبطالة والاتكال على الغير إلى حب العمل والرغبة في الانتاج والنظر إليه بأنه عز وكرامة وخلافه ذل وعيب ومنقصة...

كما وأن الإمام وجّه الولاة إلى الاهتمام بالانتاج ومراعاة المزارعين وعدم الإضرار بهم في جباية الخراج وأن يكون الاهتمام من قبل الدولة بالانتاج والتنمية أكثر من اهتمامها بجباية الخراج وقد مضى شيء من التفصيل حول هذا

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٢٦.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٣١٩.

(٣) نهج البلاغة الحكمة ١٦٣.

(٤) كنزالفوائد، الكراجكي محمد علي: ص٢٨٩، مكتبة المصطفى، قم، ط٢، ١٤١١هـ.

المعنى في فصل سابق فلا نعيد. كما وأمر الإمام الولاة بالتدخل لمراقبة عملية التوزيع والتداول ومنع الاحتكار وتنظيم الأسعار والمنع عن جميع العمليات الاقتصادية المجحفة بالعامة والمضرة بالتنمية والانتاج.

د ـ الدعوة إلى القناعة وتجنب الترف والبذخ:

في نفس الوقت الذي يدعو فيه النهج العلوي الأُمّة إلى حب العمل وتحقق أعلى درجات التنمية والانتاج، ويأمر الدولة بدعم ورعاية المشاريع الانتاجية فإنّه يدعو إلى تقنين الاستهلاك بترويج ثقافة القناعة وهي ان يكبح الإنسان جماح الهلع والحرص وأن يربي نفسه على أن يكون استهلاكه لما يملك من الأموال فيما يحتاج ويحقق له الشبع الحقيقي، ويحرك الفائض نحو إشباع الآخرين فإن للإنسان نحوين من الشبع أحدهما الشبع الحقيقي ويتحقق بالمقدار الذي يكفي من الطعام واللباس والسكن له ولعياله. والآخر هو الشبع الوهمي: وهو حب الظهور أمام الناس بالموائد المزخرفة بالألوان المكتظة بعشرات الأنواع من الأطباق والجفان وأنواع الثياب الفاخرة والجواهر الباهضة وبناء القصور والبيوت الواسعة والمزركشة. ومما لا ريب فيه أن هذا النحو المفرط من الاستهلاك لا يحتاجه الإنسان وإنما يصنعه لإشباع لذة وهمية وهي حب التفاخر على الآخرين وهي لذة مذمومة وغير إنسانية وعلى الإنسان أن يبدلها بلذة أخرى هي لذة إنسانية حقيقية وذلك إذا ربى نفسه على القناعة بما يكفيه ودفع الزائد نحو مواساة إخوته في الإنسانية. انظر إلى أميرالمؤمنين عليه السلام ماذا يقول لأحد أصحابه والذي رآه قد بنى داراً واسعة أكثر من حاجته فقد ذهب الإمام إلى عيادة العلاء بن زياد الحارثي في البصرة فلما رأى سعة داره وجه له النقد والعتاب قائلاً: «**مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ اَلدَّارِ فِي اَلدُّنْيَا أَنْتَ إليها فِي اَلأخِرَةِ كُنْتَ**

أَحْوَجَ»، ثم أرشده الإمام إلى السبيل نحو الخروج من الحالة غير المطلوبة وهي حالة الترف والبذخ فقال: «بَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا اَلآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا اَلضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا اَلرَّحِمَ وَتُطْلِعُ مِنْهَا اَلْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا فإذا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا اَلآخِرَةَ»[1].

وإذا ما ربّى الإنسان نفسه على هذا المنهج فإنّه سوف يحقق هدفين كبيرين أحدهما داخلي في نفسه والآخر خارجي في المجتمع أما الأول فهو ان القناعة تعالج عند الإنسان مرضى الحرص والنهم وحب الجمع والتكاثر والتفاخر الذي لا يقف عند حد ويجعل حياة الإنسان عبارة عن هرولة دائمة خلف السراب، وبالقناعة بما يكفيه يشعر الإنسان بالشبع والاستقرار والراحة النفسية والبدنية. ولذلك فسر أميرالمؤمنين عليه السلام الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧) فقال: «هي القناعة» وقال أيضاً: «كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً وَبِحُسْنِ اَلْخُلْقِ نَعِيماً»[2].

وقال عليه السلام: «وَلاَ كَنْزَ أَغْنَى مِنَ اَلْقَنَاعَةِ وَلاَ مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ اَلرِّضَى بِالْقُوتِ وَمَنِ اِقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ اَلْكَفَافِ فَقَدِ اِنْتَظَمَ اَلرَّاحَةَ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ اَلدَّعَةِ وَاَلرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ اَلنَّصَبِ وَمَطِيَّةُ اَلتَّعَبِ وَاَلْحِرْصُ وَاَلْكِبْرُ وَاَلْحَسَدُ دَوَاعٍ إلى اَلتَّقَحُّمِ فِي اَلذُّنُوبِ»[3].

والهدف الآخر الذي يحققه الإنسان هو استثمار أمواله في سد ثغرات المجتمع الاقتصادية بدءً من أرحامه وجيرانه ثم إلى الدائرة الأوسع فالأوسع...

وصلاح المجتمع بتكفل أغنيائه لفقرائه يعود بالخير والأمن والاستقرار

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٩.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٢٢٩.

(٣) نهج البلاغة الحكمة ٣٧١.

على الأغنياء أنفسهم إضافة إلى راحة الوجدان والضمير.

واما إذا كان الأغنياء قد تحكم على عقولهم هوس الجمع وتضخيم الحسابات المصرفية ولم يكن لهم هم ولذة إلا التلذذ بزيادة أصفار حساباتهم من المئات إلى الآلاف ومن الآلاف إلى الملايين وهكذا... فإنهم في هذه الحالة سوف لن يلتفتوا إلى الفقراء...

والمجتمع الذي ينقسم أفراده بين فقراء أيديهم صفرات وأغنياء يتلذذون بزيادة الأصفار إلى الحسابات لن يكون آمناً ومستقراً ولربما عادت هذه الأصفار الزائده وبالاً على أصحابها فجعلت دنياهم صفراً كما اصفرت آخرتهم من قبل وصدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

٣ـ النظم الاجتماعي:

بارتباط الرجل مع المرأة في ميثاق الزواج المقدس تكون النواة الأولى للمجتمع وبالتوالد والتناسل تتكون الأسرة ومن ثم تتفرع الذرية وتتوسع فتشكل القبيلة وبتقادم الأزمان يكون المجتمع قد تألف من عدد كبير من القبائل والمجموعات البشرية المختلفة في اللغات والألوان والطبائع... وقد مضى في بحث التواصل الاجتماعي بحث عن العلاقات الاجتماعية ولكنه كان بحثاً ذا طابع أخلاقي وهنا في بحث النظم الاجتماعي سوف نتبادل البحث من الجهة الحقوقية ونتعرف على الموازين العلوية التي أراد المنهج العلوي أن تنتظم على أساسها مفردات المجتمع فالمرأة والرجل والوالد والولد والعلاقات الأسرية والقبلية.

أ ـ علاقة الرجل مع المرأة:

عالجت نصوص نهج البلاغة مسألة التعامل مع المرأة بدقة بالغة فدعت إلى أن تأخذ المرأة مكانتها في المجتمع بما يتناسب مع وضعها التكويني والنفسي والعقلي بعيداً عن الإفراط الذي يجعلها فوق طاقتها ويضعها في غير مكانها المناسب والتفريط الذي يلغي إنسانيتها ويخرجها من أداء دورها في نظام الحياة الأحسن وقد يبدو لمن ينظر إلى النصوص الواردة في خصوص المرأة بنظرة سطحية وتجزيئية ان هذه النصوص تحط من مكانة المرأة. ولكن هذه النظرة السطحية والحكم الابتدائي سوف يزول عند ربط هذه النصوص بالمنظومة العامة للشريعه وتسليط أجهزة الكشف الدلالي التي يتم بها تشخيص النصوص التي يعتريها التشابه والإبهام وهنا لابد من إدخال كاشفين دلاليين مهمين كي يتسنى لنا معرفة المقصود من كلمات أمير المؤمنين حول المرأة وهما.

أولاً: العرض على القرآن الكريم:

يعتبر العرض على النصوص ذات الدلالة القطعية في القرآن الكريم من أهم طرق العلاج للأخبار المتعارضه أو المبهمة الدلالة... بل لا يتحقق مضمون الخبر الوارد عن النبي أو الأئمة الأطهار إلا بعد مقابلته مع الكتاب والسنة القطعية وحول هذا المعنى يقول السيد علي السيستاني في بحثه حول (قاعدة لا ضرر): لابد في تحقيق مضمون الخبر من مقايسته بشواهد الكتاب والسنة ونقده نقداً داخلياً وذلك من جهتين:

الأولى: أن لا يكون مضمون الخبر مخالفاً للمعارف المسلمة في الإسلام مما ورد في في الكتاب والسنة كأن يكون هادماً لما بناه الإسلام أو بانياً لما هدمه الإسلام واعتبار هذا الشرط من قبيل القضايا التي قياساتها معها كما هو

واضح... (لأن الرسول والإمام لا يمكن ان يهدما ما بنى الإسلام أو يبنيا ما هدم الإسلام).

الثانية: أن يكون مضمونه موافقاً مع الكتاب والسنة توافقاً روحياً بمعنى أن يتسانخ مع المبادئ الثابتة من الشريعة الإسلامية من خلال نصوصها القطعية ولو في مستوى التناسب والاستئناس.

وقد نبه على اعتبار هذا الشرط في حجية الخبر جملة من الروايات حيث اعتبرت في قبوله موافقة الكتاب والسنة وأمرت بطرح ما خالفهما والأخذ بما وافقهما فإن المقصود بذلك على التفسير المختار لها التوافق والتخالف الروحي بينه وبينهما على ما تشهد به قرائن داخلية وخارجية وإن كان المعروف تفسيرها بالتوافق والتخالف في المؤدى ولنذكر بعض هذه الأخبار المستفيضة: عن أبي عبدالله قال خطب النبي صلى الله عليه وآله في منى فقال يا أيها الناس ما جاءكم منى يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاء يخالف كتاب الله فلم أقله. وعنه عليه السلام أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال: «ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه».

وعن أبي عبدالله عليه السلام : «كل حديث مردود إلى الكتاب والسنة وكل شيء لايوافق كتاب الله فهو زخرف».

والحقيقة هي الراية والمعنى انّ كلّ حقّ راية وعلى كلّ صواب وضوح وراية الحقّ هي الموافقة مع القرآن الكريم[1].

(١) قاعدة لا ضرر، السيد السيستاني، نشر مكتب السيد السيستاني، قم، سنة ١٤١٤، ط١.

ثانياً: التعرف على ظرف صدور النص :

كما ان شأن النزول يؤدي دوراً مهماً في تفسير الآيات كذلك فإن ظرف صدور النص يساعد كثيراً في معرفة النصوص وتشخيص مقصودها وتمييز القضايا الخارجية من القضايا الحقيقية.

وبعد هاتين المقدمتين نقول:

إن علياً أمير المؤمنين عليه السلام لا يمكن أن يقول كلاماً مخالفاً للقرآن الكريم. كيف وهو القرآن الناطق الذي يتحرك بجوانحه وجوارحه بالقرآن وهو القائل: «**ذَلِكَ القرآن فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنطِقَ وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ**»(١).

وهو القائل: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا القرآن هُوَ اَلنَّاصِحُ اَلَّذِي لاَ يَغُشُّ وَاَلْـهَادِي اَلَّذِي لاَ يُضِلُّ وَاَلْـمُحَدِّثُ اَلَّذِي لاَ يَكْذِبُ وَمَا جَالَسَ هَذَا القرآن أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أو نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى وَنُقْصَانٍ مِنْ عَمًى**»(٢).

وهو القائل: «**فَمَا دَلَّكَ القرآن عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ**»(٣).

وهو القائل في أمر (الحكمين) في صفين: «**وَإِنَّمَا حُكِّمَ اَلْـحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا القرآن وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ القرآن وَإِحْيَاؤُهُ اَلِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ وَإِمَاتَتُهُ اَلِافْتِرَاقُ عَنْهُ فَإِنْ جَرَّنَا القرآن إِلَيْهِمُ اِتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اِتَّبَعُونَا... أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلَّا يَتَعَدَّيَا اَلْقُرْآنَ**»(٤).

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٥٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٧٦.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٩١.

(٤) نهج البلاغة الخطبة ١٢٧.

وقال في وصف الإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً: «**وَيَعْطِفُ اَلرَّأْيَ عَلَى القرآن إذا عَطَفُوا القرآن عَلَى اَلرَّأْيِ**»[1]...

وهو القائل في آخر لحظات حياته في وصيته لجميع الأُمّة والأجيال الموالية له والمهتدية بنهجه: «**وَالله الله فِي القرآن لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ**»[2].

وعليه فإنّنا عندما نقرأ ان علياً قد تكلم في النساء بعد فراغه من حرب الجمل فقال: «**مَعَاشِرَ اَلنَّاسِ إِنَّ اَلنِّسَاءَ نَوَاقِصُ اَلأيمَانِ نَوَاقِصُ اَلْـحُظُوظِ نَوَاقِصُ اَلْعُقُولِ فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاَةِ وَاَلصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِـهِنَّ فَشَهَادَةُ اِمْرَأَتَيْنِ مِنْهُنَّ كَشَهَادَةِ اَلرَّجُلِ اَلْوَاحِدِ وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى اَلأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ اَلرِّجَالِ فَاتَّقُوا شِرَارَ اَلنِّسَاءِ وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي اَلْمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي اَلْـمُنْكَرِ**»[3].

فإنّنا يجب أن نعرض هذا الكلام على كتاب الله لنرى المقصود الأصلي والنهائي منه... وكذلك ندخل في عملية الكشف عن المقصود معرفة الأجواء والقرائن الحالية التي صدر فيها هذا الكلام.

وعندما نرى القرآن الكريم يعلن بنص محكم وصريح ان الرجل والمرأة متساويان بلحاظ الإنسانية ومتكافئان من حيث الحصيلة النهائية للإكرام الإلهي للإنسان إذا سلكا في طريق العبودية لله وحققا الإيمان والعمل الصالح والتقوى... فقد قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (النحل: ٩٧).

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٣٨.

(٢) نهج البلاغة الكتاب ٤٧.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٨٠.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

هذه الآيات توضح انّ الميزان النهائي لتقييم الإنسان وتحديد مستقبله وجزائه الأخروي بل وحتى الدنيوي أيضاً هو الإيمان والعمل الصالح والتقوى فالمرأة التي تستطيع بسعيها وحسن اختيارها وجدها واجتهادها وصبرها في ميادين الحياة أن تجمع درجات في الإيمان والعمل الصالح والتقوى أكثر من الرجل فهي التي تستحق من الله المكافأة الأكبر في الإكرام الدنيوي والأخروي بالحياة الطيبة والجزاء الأحسن وفي جنات الخلد والرضوان وهي بلا شك سوف تسبق الرجل الذي تأخر عنها ولم يقدم ما قدمته من الإيمان والعمل الصالح.

والإمام عليه السلام لا يريد أبداً بهذا الكلام أن يقول بأن الله خلق النساء وجعل فيهن نقصاً يحول بينهن وبين الإكرام الإلهي والدرجات العالية وان هناك ظلماً قد حصل في حق النساء والعياذ بالله فإن هذا ليس مخالفاً للقرآن فحسب وإنما هو مخالف للعدل الإلهي الذي هو أصل من أصول الدين وبه ولأجله قامت السماوات والأرض.

وإنّما أراد الإمام أن ينبه إلى طبائع المرأة كي يلفت أنظار الأُمّة إلى دورها في الحياة وإلى كيفية التعامل معها.

وهذا النحو من الخطاب معهود في القرآن الكريم بالنسبة إلى عموم الإنسان فقد قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (الأنبياء: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وإذا مَسَّهُ

﴿الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلا الْـمُصَلِّينَ﴾ (المعارج: ١٩ ـ ٢٢).

﴿وَكانَ الإنسان كفُورًا﴾ (الإسراء: ٦٧).

﴿إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

﴿وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

فهذه المواصفات والطبائع وجدت في الإنسان ليمتحن بها ويصل إلى الدرجات العليا بواسطة علاجها بدواء الشريعة والتبعية للأنبياء فهي بالعلاج الصحيح تتحول إلى أسباب كمال للإنسان ولا يعني ذكر هذه الصفات ان الله قد خلقها أمام الإنسان موانع وعقبات تحول بينه وبين الهدف الذي خلق من أجله وكيف يمكن ان يقوم الحق سبحانه بأن يقص أجنحة الإنسان ثم يأمره بالطيران؟! ويخلقه غير قادر على الإيمان والعمل الصالح ثم يأمره بذلك؟! أليس هذا هو القسر والظلم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والاختلاف في الطبائع بين الرجال والنساء وكذلك الاختلاف بين الرجال أنفسهم في الكفاءات والاستعدادات أمر ضروري لتكامل المجتمع بان يؤدي كل واحد دوره المتناسب مع قابليته واستعداده ويشترك الجميع في بناء وإعمار الحياة بواسطة استخدام البعض للآخر والتسخير المتبادل...

قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّك خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

ولو اتحدت قابليات الناس ورغباتهم وأذواقهم لتعطلت الحياة.

وان أهم اختلاف اقتضته ضرورة الحياة والنظام الأحسن للكون هو الاختلاف بين الرجل والمرأة كي يؤدي كل منهما دوره ويكمل أحدهما الآخر..

فالطبيعة الغالبة في الرجال هو الصلابة وتحمل الأعمال الشاقة وعدم الانفعال السريع وتحكيم جانب العقل العملي على العاطفة والطبيعة الغالبة على النساء هو الرقة والنعومة وغلبة الجانب العاطفي والتأثر والانفعال السريع والخوف... وهذه الطبيعة في المرأة كمال لها إذا استثمرت في الطريق الصحيح وذلك إذا استخدمت المرأة هذه المواصفات التكوينية في أداء دورها في ملء العش الزوجي بالمحبة والوئام وسكبت عواطفها ورأفتها وحنانها ورقتها على زوجها وأطفالها واستخدمت صفة الانفعال والتأثر في الاستجابة السريعة لحاجات وليدها في فترة حمله ورضاعه وحضانته...

ولكن إذا انسلخت المرأة من قالبها التكويني وراحت لتؤدي دوراً لا يتناسب مع طبائعها لاسيما إذا كان دوراً خطيراً كقيادة الحرب فإن مواصفات المرأة التي أريد لها أن تكون كمالاً سوف تتحول إلى نقص ووبال على المرأة والأسرة والمجتمع بأسره...

وبهذا يتضح لنا المقصود من تحذير أميرالمؤمنين عليه السلام من النساء الذي صدر بعد حرب الجمل التي قادتها امرأة أمرها الله سبحانه أن تقر في بيتها وتكون أماً للمؤمنين تسكب عليهم حناناً ورأفة وتعلمهم ما اكتسبته من عشرتها لرسول الله من خلق عظيم ورحمة للعالمين لا أن تتمرد على إمام زمانها وتنقض عهد المصطفى في أخيه علم الهدى والمبين طريق النجاة من طرق الردى وترهج عليه نقع الحروب والفتن...

وفي هذا الجو المفعم بالألم والأسف لما أودت إليه حرب الجمل من سفك دماء الآلاف من أمة محمد صلى الله عليه وآله لا لسبب سوى انفعال عاطفي ونظر قاصر وسوء تدبير من امرأة استغلها بعض الحاقدين على العدالة العلوية

فكان ذلك التمرد الطائش الذي أهلك العباد وأخرب البلاد.

فهنا يحذر أميرالمؤمنين الأُمّة من سوء عاقبة وضع المرأة في غير موضعها.. فنقول بأن المرأة لم تخلق لقيادة الحروب ومواجهة الرجال وإدارة الأعمال التي تحتاج إلى عزم شديد وإرادة صلبة لأن النساء نواقص الإيمان ومعنى النقص في الإيمان هنا ليس هو الضعف في العقيدة لأن من التناقض الصارخ ان يخلق الله المرأة ضعيفة الإيمان ثم يطلب منها الإيمان بموازاة الرجل ويجعل جزائها تابعاً لقوة إيمانها وعملها الصالح وبدل عن ذلك ان الإمام فسر هذا النقص بالإيمان بالاستراحة والإعفاء عن الصوم والصلاة الذي وهبه الله للمرأة في أيام الدورة الشهرية وهل يمكن أن يهب الله للمرأة شيئاً ثم يعيبها عليه فهذا التفسير والتوضيح من قبل الإمام لنقص الإيمان يدل بوضوح ان التعبير مجازي وليس حقيقياً ويقصد من ان المرأة ذات الجسم الرقيق والضعيف الذي يقتضي إعفاءها من الصلاة والصيام لعدة أيام في كل شهر من الأجدر بها أن تنأى بنفسها عن الأعمال الثقيلة والدخول في النزاعات السياسية وقيادة المعارك والحروب.

فهذا النقص أو الضعف يعود في الحقيقة إلى عامل التقدير الإلهي للمرأة لا إلى التقتير بحقها فهو سبحانه يقول: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (القمر: ٤٩)، ﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** ﴾ (الحجر:٢١)، فالمرأة قد تم تقديرها وتحديدها بهذا النحو والرجل تم تقديره بنحو آخر ليكون حجم كل منهما مناسباً لدوره في النظام الأحسن الإلهي حيث خلق الله الكون في أحسن الخلق... ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ**﴾ (السجدة: ٧).

فمثل المرأة والرجل في نظام الكون مثل قطعات الماكنة التي صممها صانعها بأحجام وأشكال مختلفة فبعضها صغير وبعضها أكبر وبعضها من مادة

الحديد وبعضها من مادة البلاستيك أو غيرها.

فهنا إذا وضعت كل مفرده وقطعة غيار في محلها فإن الماكنة سوف تعمل بنحو صحيح ومنتظم ولكن إذا وضعت القطعات في غير مواضعها فإن ذلك يؤدي إلى تعطيل الماكنة وخرابها.

وعليه فإن هذا النقص تقدير للمرأة صاغته يد التكوين فلا يمكن أن يعد عيباً للمرأة بل هو كمال إن وضع في المحل الصحيح وهو عيب ونقص إذا لم يلتفت إليه ووضع في غير موضعه المناسب ولذلك كان تحذير الإمام منه لاسيما وانه كان خارجاً للتو من كارثة حلت بالأمة بسبب التعامل غير الصحيح للأمة مع المرأة وإقحامها في ما لا يناسبها مما أدى بأم المؤمنين أن تتخذ موقفاً لم تدرك عاقبته فكان نتيجته أنها سببت في قتل الآلاف من أولادها!...

وقوله عليه السلام نواقص الحظوظ فلا يختلف في معناه عن الوصف السابق وقد فسره الإمام بأنه يعني إعطاء المرأة نصف ميراث الرجل فإذا كان النقص ناتجاً من حكم شرعي إلهي فهو ليس عيباً ونقصاً حقيقياً وإنما هو تعبير مجازي أيضاً والمقصود منه معناه اللازم أي ان أمر الإنفاق وإدارة الشؤون الاقتصادية وغيرها لا تكون بيد المرأة ولذلك لا تعطى من الميراث بقدر ما يعطى الرجل... ولا يعني ذلك ان تنصيف ميراث المرأه هو نحو من الظلم لها فالنصف الذي يعطى للمرأة يبقى في الحقيقة ملكاً خالصاً لها وما يحصل عليه الرجل من الميراث فإنّه سوف ينفقه عليها لوجوب النفقة على الرجل وعدم وجوبها عليها كذلك وجوب الصداق على الزوج وعدم وجوبه على الزوجة.

وأما قول الإمام نواقص العقول فيتضح معناه من الكلام السابق إضافة إلى معرفة معنى العقل فالعقل يقسم إلى النظري والعملي والعقل النظري هو

الذي يدرك ما ينبغي ان يعلم ومثل استحالة اجتماع النقيضين وان الواحد نصف الاثنين وان الكل أكبر من الجزء والعقل العملي هو العقل الذي يدرك ما ينبغي أن يفعل أي يدرك الحسن والقبح مثل حسن العدل وقبح الظلم ويكون سبباً لحدوث الإرادة والعزم في نفس الإنسان لفعل ما يبتغي وترك ما لا ينبغي.

فالعقل النظري هو عقل إدراك الأشياء أو عقل الجزم والعقل العملي هو عقل العزم... وليس هناك أي فرق بين المرأة والرجل في العقل النظري لأن التكليف مشترك بين المرأة والرجل ولا تكليف دون وجود العقل والإدراك عند المكلف... بل ان أصول الدين التي هي أساس التكليف لايدركها الإنسان ألا بالعقل... وطلب العلم والمعرفة واجب وفريضة على كل مسلم ومسلمة...

وأما الفرق بين الرجل والمرأة في العقل العملي أو عقل العزم وذلك لأن الرقة والعاطفة والانفعال والتأثر السريع الموجود عند المرأة يؤثر على قدرة تشخيصها للأمور فتقع في العزم والإرادة الخاطئة ولذلك فإن درجة كشف شهادتها ليس بمقدار الرجل لأن تشخيصها للأمور يتأثر بعواطفها في الأعم الأغلب كذلك فهي لا تناسب منصب القضاء والمقامات القيادية العالية.

وهذا الأمر ليس مختصاً بالإسلام والمنهج العلوي وإنما هو أمر قد أذعن له جميع عقلاء العالم، وهذه أشد دول العالم تبجحاً بالديمقراطية وحقوق الإنسان والمساواة بين بين المرأة والرجل وهي الولايات المتحدة لم نشهد فيها انتخاب امراة لرئاسة الجمهورية منذ عشرات السنين بل ان اختيار النساء للمناصب الأخرى الأقل أهمية كالوزارات والعضوية في البرلمان قليلة جداً بالنسبة إلى عدد الرجال... وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ان أفراد البشرية برجالهم ونسائهم متفقون ولو على المستوى العملي على ضعف المرأة في مجال القيادة

والرئاسة وإدارة المهمات الكبيرة وتشخيص الحلول للأزمات السياسية والاجتماعية...

وهؤلاء عندما لا ينتخبون المرأة للمهمات الصعبة لا يريدون إهانتها وإنما يريدون إكرامها من الوقوع في العجز والفشل.

والإسلام والمنهج العلوي كذلك أراد إكرام المرأة بعدم تحميلها ما لا تطيق ولأن تكليف الإنسان بأداء عمل خارج اختصاصه وقدراته إهانة له.

نعم هذا لا يعني ان هناك نوادر من النساء يملكن من القدرة ما يكفي لأداء هذه المهمات... كما ان هناك الكثير من الرجال الضعفاء في العقل العملي وتغلب على مواقفهم وقراراتهم العاطفة والتسرع في الأُمور.

لكن القانون والحكم لا يوضع للنوادر وإنما يوضع بملاحظة الأعم الأغلب دائماً... كما ان هناك مسألة لابد من التنوية إليها وهي ان الضعف في عقل العزم لدى النساء لا يعني بالضرورة انه يمنع النساء من الدرجات الإيمانية العالية فالمرأة تستطيع في مجالها العلمي وكذلك في مجالها العملي المناسب لها أن تبلغ أعلى الدرجات في العلم والمعرفة والإيمان والعمل الصالح والتقوى واليقين وترقى إلى مقام يقصر عن بلوغه أكثر الرجال وتنافس به الأنبياء والأولياء.

ولنا في التاريخ رجال بلغوا أعلى درجات الكمال ولكنهم لم يكونوا مناسبين لمنصب القيادة والولاية مثل أبي ذر الغفاري الذي قال عنه الرسول الأكرم: «**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر**»[1].

ولكن الرسول لم يعهد إليه بمنصب...

---

(١) المستدرك، الحاكم النيشابوري: ج٢، ص٣٤٤، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦.

كما ان كميل بن زياد النخعي كان من حواري أميرالمؤمنين وخلص أصحابه وحامل أسراره ولكنه لم ينجح في أمر الولاية مما دعى أميرالمؤمنين إلى توبيخه وعزله من الولاية على هيت قائلاً له: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ تَضْيِيعَ اَلْـمَرْءِ مَا وُلِّيَ وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ لَعَجْزٌ حَاضِرٌ وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ**»(١).

فهنا نرى أميرالمؤمنين يصف كميل الذي حاز أكبر الدرجات في العقل النظري وكان لديه وعاء يسع لتعلم أسرار أميرالمؤمنين بحيث كان يأخذ بيده إلى الصحراء ليدلي إليه بأسراره مع ذلك فإنّه في العقل العملي ابتلى بالعجز الحاضر والرأي المتبر.

وبهذا يتضح أيضاً قول الإمام: «**فَاتَّقُوا شِرَارَ اَلنِّسَاءِ وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي اَلْـمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي اَلْـمُنْكَرِ**»(٢).

لأنّ خيار النساء تبقى عرضة للطبيعة الانفعالية والرقة العاطفية التي تؤدي إلى وقوعها في هفوات كبيرة... ولذلك ينبغي الحذر من إشراكها في المهمات الخطيرة.

وهذا الحذر يقتضي بأن لا تتبوّأ المرأة مقام إصدار الأوامر فإنّها ولنفس السبب المذكور عرضة لاختلاط الأُمور عندها فيختلط عندها المنكر بالمعروف وعندما تطاع في المعروف فانها تطمع في ان تطاع بالمنكر أيضاً وهي تحسب انه معروف.

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٦١.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٨٠.

المرأة ريحانة:

وفي وصية الإمام لابنه الحسن عليه السلام يؤكد الإمام أيضاً على عدم مشاورة النساء ويذكر السبب في ذلك وهو ذات السبب الذي سبق توضيحه وهو النقص في الرأي والضعف في العزم... يقول عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ اَلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلى أَفْنٍ وَعَزْمَهُنَّ إِلى وَهْنٍ**»(١).

بالطبع ان هذا النهي عن المشاورة يقصد به الأُمور الصعبة والمهمة التي تحتاج إلى الرأي القوي السديد والعزم الشديد والتي لا تنهض بها عقلية الأغلبية الساحقة من النساء... لا يشمل هذا النهي التشاور مع المرأة في كثير من العلوم والأعمال والمهن التي تتقنها المرأة وتبدع فيها إلى درجة تتفوق بها على الرجال أحياناً.

وبعد أن يؤكد الإمام في وصيته على عدم اختلاط المرأة بالرجل وعدم خروجها من البيت إلا لضرورة لأن الخروج والاختلاط إذا حصل لغير ضرورة فإن هذا يعني فتح الباب للمرأة كي تستعرض جمالها ومفاتنها للرجال، وقد وهب الله الجمال للمرأة كي تزين به العش الذهبي في بيتها وتصنع به المحبة والوئام في داخل أسرتها... لا أن تسكبه في الشوارع والحدائق والأسواق لتصبح فريسة لذئاب الرجال فتهلك نفسها وتحطم أسرتها وتفسد مجتمعها... فما أروع كلمات أمير التقوى والشرف والعفاف وما أعظمها في بناء المجتمع القوي المتكامل حيث يقول: «**وَاُكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ اَلْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ وَإِنِ**

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٣١.

اِسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ وَلاَ تُمَلِّكِ الْـمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الْـمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ»(١).

أي لا تحمّل المرأة فوق طاقتها فانها ليست موجوداً خشناً وصلباً وإنّما هي كنبتة الورد والريحان.

ثم ينهى الإمام من سوء الظن بالزوجة الذي يكشف لها زوجها انه غير واثق بحبها له مما يؤدي إلى الإخلال في العلاقة الزوجية وتعكير جو المودة والرحمة الذي يجب أن يحكم داخل الأسرة التي يجب أن ترعاها وتحافظ عليها من تأثيرات العواصف والأنواء ومن كيد أصحاب الطمع والأهواء وهكذا نرى أميرالمؤمنين عليه السلام يوجه الأُمّة للتعامل مع المرأة بالدقة العالية والحكمة البالغة فالمرأة هي نصف المجتمع ولكنها مخلوق حساس وجنس لطيف رقيق فهذا النصف من جسم المجتمع يجب أن يوضع في محله كي يتكامل المجتمع فإن تكامل الجسم وسلامته وصحته بتكامل أجزائه وقيامها بدورها وأن يأخذ كل جزء حجمه المناسب ويقوم بدوره المناط به. وأن يتم التعامل معه بما يناسب حجمه ولذلك نرى أميرالمؤمنين عليه السلام كما يشدد على عدم إقحام المرأة في الأدوار غير المناسبة لها كذلك يأمر من جهة أخرى بمراعاتها كما تراعى الورود والأزهار والقوارير وأن يتم التعامل بالعفو والتسامح والإحسان إليها في مقابل الإساءة. فقد جاء في وصيته لجيشه قبل لقاء العدو في صفين: «**وَلاَ تَهِيجُوا اَلنِّسَاءَ بِأَذىً وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ اَلْقُوَى وَاَلأَنْفُسِ وَاَلْعُقُولِ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَـمُشْرِكَاتٌ وَإِنْ كَانَ اَلرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ اَلْـمَرْأَةَ فِي اَلْـجَاهِلِيَّةِ**

(١) نفس المصدر.

بِالْفِهْرِ أو اَلْـهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ»[1].

وخلاصة ما يمكن أن يقال في هذا البحث هو ان المنهج العلوي في علاقة الرجل بالمرأة يطلب من الرجل أن يكون قائماً على مراعاة المرأة بالرأفة والرحمة والعفو والإحسان كي تقوم بأعظم دور رسمته له السماء ألا وهو دور الأمومة وبناء الأسرة ولأجل أداء هذا الدور زودتها يد التكوين بمستلزمات الأمومة من الرقة والعاطفة المتدفقة الفياضة وسرعة التأثر والانفعال وجعلت يد التشريع الرجل قواماً على المرأة بأن أوجبت عليه بأن يعمل لتوفير حياة كريمة لها ولأولادها وأن يرعاها بما يناسب مواصفاتها وحاجاتها النفسية... فهذه القوامة للرجل ليس إكراماً له على حساب المرأة وانما هي امتحان ومسؤولية وأمانة... إذ لا يوجد في المقاييس القرآنية والعلوية إكرام للإنسان بامتلاك المال أو بحيازة منصب الرئاسة والإدارة إنما الإكرام يتبع التقوى والعمل الصالح... فإذا راعى الرجل التقوى في التعامل مع المرأة ولم يؤذها بشيء ولم يبخس حقها وأحسن إليها فقد نجح في امتحان القوامة وإدارة الحياة وإذا راعت المرأة التقوى في واجباتها لاسيما في قيامها لدور الأمومة فإنّه سوف تنجح في امتحانها وتفوز، لا بالجنان فحسب بل تبلغ بأمومتها المقدسة الطاهرة درجة تكون فيها الجنان تحت أقدامها.

ب ـ علاقة الوالد بالولد :

وهي المفردة الثانية في النظم الاجتماعي التي إذا ماتم مراعاتها فإنّه سوف يؤدي إلى إحكام بناء الأسرة ونجاحها في رفد المجتمع بالطاقة الإنسانية

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ١٤.

الصالحة... وهنا ينبه أميرالمؤمنين عليه السلام الآباء إلى حقيقة هامة يجب عليهم أن يلتفتوا إليها في تربية أولادهم حيث يقول لابنه الحسن: «**وَإِنَّمَا قَلْبُ اَلْـحَدَثِ كَالأَرْضِ اَلْـخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ**»(١).

فعلى الوالدين أن يعلما ان الولد أرض خالية وهي خصبة في نفس الوقت ينبت فيها كل ما يلقى فيها من البذور فإذا ما أرادا أن يكون الولد شجرة طيبة فعليهم أن يحافظوا عليه من البذور الخبيثة التي قد تصدر من الأبوين من أفعالهم وأقوالهم وأخلاقهم... أو يكتسبها من الجو الملوث بالمفاسد والانحرافات في الشارع والمدرسة أو وسائل الإعلام المختلفة...

ويوضح الإمام في حديث آخر هذا المعنى في بيان مصاديق مؤثرة في تربية الولد وغرس أشجار الخصال الطيبة في نفسه فيقول: «**إِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى اَلْوَالِدِ حَقّاً وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى اَلْوَلَدِ حَقّاً فَحَقُّ اَلْوَالِدِ عَلَى اَلْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلّا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَحَقُّ اَلْوَلَدِ عَلَى اَلْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اِسْمَهُ وَيُحَسِّنَ أَدَبَهُ وَيُعَلِّمَهُ اَلْقُرْآنَ**»(٢).

فإذا ما أراد الوالد أن يجعل ولده باراً ويؤدي حقه له وهو طاعته في كل شيء فعليه أن يزرع في نفس الولد شجرة البر والإحسان... وذلك بتوفير الجو التربوي الصالح من الاسم الحسن إلى الآداب الحسنة والأخلاق الإنسانية العالية وان يعلمه القرآن تلاوة وتفسيراً وعملاً.

بالطبع فإن البرنامج التربوي والتعليمي يحتاج إلى تدريج وتنظيم وان

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٣١.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٣٩٩.

يتضمن إشباعاً لجميع حاجات الولد المشروعة وان يتجنب الوالد إكراه الولد الاقتداء بجميع برامج الوالد العبادية أو الاجتماعية أو العلمية... فإن هذا الأسلوب يؤدي إلى نتائج عكسية وفي ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام للآباء وللمعلمين والمربين: «**إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً وَإِدْبَاراً فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِـهَا فَإِنَّ اَلْقَلْبَ إذا أُكْرِهَ عَمِيَ**»(١).

ج ـ العلاقات الفئوية:

نقصد بالعلاقات الفئوية العلاقات الاجتماعية في الدائرة الأوسع من الأسرة، فإذا ارتبطت جماعة من الأسر بأواصر القربة وكان لها رأس وقوانين أو عادات سميت هذه المجموعة بالقبيلة فإذا اتحدت عدة قبائل تحت رئيس واحد تكونت بذلك العشيرة. فالعشيرة هي الخطوة الثانية نحو تشكيل الدولة(٢).

وقد امتدح أميرالمؤمنين عليه السلام الانتماء إلى القبيلة والعشيرة والانتظام فيها باعتبارها شكلاً من أشكال الوحدة والتعاون والتواصل التي هي من الأهداف الكبرى للشريعة.

يقول عليه السلام: «**أَيُّهَا اَلنَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي اَلرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ اَلنَّاسِ حِيْطَةً مَنْ وَرَائِهِ وَأَلَـمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إذا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ اَلصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي اَلنَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ اَلـْمَالِ يُوَرِّثُهُ غَيْرُهُ**»(٣)، ويدعو الإمام إلى بذل المال لأجل القرابة وأفراد العشيرة المحتاجين لأن هذا البذل يعود بالربح الكثير على صاحبه لأنه يمد يداً

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٩٣.

(٢) انظر قصة الحضارة، ويل ديورانت: ج٢، ص٤٠، دار الفكر، بيروت.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٢٣.

واحدة وفي مقابلها سوف تمتد إليه أيد كثيرة في وقت الحاجة...

يقول عليه السلام: «**أَلاَ لا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ اَلْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا اَلْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ اَلْمَوَدَّةَ**»[1].

وقد يستفاد من كلام أميرالمؤمنين ان تأسيس القبيلة والعشيرة وبناء التشكيلات والمؤسسات المتعاونة بينها أمر مطلوب، وان من ينأى بنفسه عن التشكيلات والتنظيمات الاجتماعية فانما يقوم بعمل غير منسجم مع الثقافة الدينية... وهو عمل مرجوح وقد يصل إلى الحرمة إذا أدى إلى تفرقة الأُمّة وتضعيف شوكتها.

أُنظر ماذا يقول الإمام لولده الحسن في أهمية العشيرة: «**وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ اَلَّذِي بِهِ تَطِيرُ وَأَصْلُكَ اَلَّذِي إليه تَصِيرُ وَيَدُكَ اَلَّتِي بِهَا تَصُولُ**»[2].

الأمر المهم هو معرفة الميزان الذي حدد الانتماء إلى التنظيمات الاجتماعية كالعشيرة والمؤسسات والأحزاب. وهو أن تكون هذه الكتل الاجتماعية وسيلة لتوحيد الجهود والتعاون من أجل تحقيق الأهداف العليا للمجتمع في الأصل وتحقيق مصالحها بالعرض وفي طول المصالح العليا وإنّ المحور الذي تجتمع حوله هو التعاون على البر والتقوى لا التعاون على الإثم والعدوان فالإنسان يتعاون مع العشيرة أو الحزب والمنظمة في إطار الحق والقيم الإنسانية... أما إذا

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٣.

(٢) نهج البلاغة الكتاب ٣١.

أرادت العشيرة أو الحزب أو الجماعة من العضو المنتمي إليها أن يشاركها في ظلم لإنسان أو جماعة أو عشيرة أخرى أو سلب حق أو شهادة زور فإن الإنسان التابع للمنهج العلوي في هذا المفترق يحول انتمائه للعشيرة والحزب من التعصب لها إلى تعصب للحق والعدل... وإلا فسوف يكون قد خرج عن الولاية العلوية التي هي فوق كل ولاء وانتماء.

أُنظر ماذا يقول أميرالمؤمنين عليه السلام للمنذر بن الجارود العبدي وهو احد ولاته الذي قد وصل عشيرته، عل حساب موازين الدين خلافاً لمنهج العدل العلوي.

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِيَ إِلَيَّ عَنْكَ لاَ تَدَعُ لِـهَوَاكَ اِنْقِيَاداً وَلاَ تُبْقِي لأخِرَتِكَ عَتَاداً تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً لَـجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ أو يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ أو يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ أو يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ أو يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ الله»(١).

وفي خطبة الإمام القاصعة التي خصصها الإمام ليصعق بها التعصب الأعمى والتكبر يضع الإمام ميزاناً دقيقاً وحساساً للفصل بين الإسلام الصحيح والإسلام المنحرف وتشخيص هوية الإنسان ونوع انتمائه وولائه.

يقول عليه السلام: **«وَاِعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ اَلْهِجْرَةِ أَعْرَاباً وَبَعْدَ اَلْـمُوَالاَةِ أَحْزَاباً مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الإسلام إِلّا بِاسْمِهِ وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ اَلأيمَانِ إِلّا رَسْمَهُ تَقُولُونَ اَلنَّارَ وَلا**

(١) نهج البلاغة الكتاب ٧١.

اَلْعَارَ كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا اَلإسلام عَلَى وَجْهِهِ اِنْتِهَاكاً لِـحَرِيمِهِ وَنَقْضاً لِـمِيثَاقِهِ اَلَّذِي وَضَعَهُ الله لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ»[1].

الإسلام جاء ليغير ولاء الإنسان وانتمائه من ولاء العصبة والعشيرة والفئة إلى ولاء العقيدة والعمل الصالح والخلق الإنساني.

والإسلام لا يلغي العشيرة والقبيلة والعصبية بل يدعو إليها كتنظيم وجماعة متعاونة... ولكنه يقول كن إنساناً قبل أن تكون عشائرياً وكن منتظماً بحبل الولاء للفصيلة الإنسانية والقيم الإسلامية قبل أن تنتمي للحزب والجماعة، الإسلام يقول نعم للعشيرة وللجماعة... إذا كانت لأجل النظم وتوحيد الجهود والتكاتف والتعاون، ويرفضهاإذا كانت لأجل التعصب والتحزب... يقبلها إذا كانت وسيلة نحو أهداف الله وخطوة نحو المثل الاعلى ويرفضها إذا أصبحت هي المثل الاعلى وصارت إلهاً يُعبد من دون الله.

وعندما تحكم الفئوية والعشائرية على المجتمع فإن العيب العشائري يحكم على الحرام الشرعي والعادة القبلية تسلط على الفريضة الإلهية والمصلحة الحزبية والفئوية تصير هي معيار للخير والكمال.

فمن ارتكب الحرام فراراً من العيب وترك العبادة لأجل العادة وضحى بالدين والأمة من أجل فئته وحزبه، فإنّه قد قلب الإسلام على وجهه؛ لأن الإسلام جاء ليقول بأنّ العيب الحقيقي هو الحرام، وإنّ إلى العبادة قبل العادة، وإن مصلحة الأُمّة والشريعة أعلى من مصلحة الفئة.

والمسلم الحقيقي هو الذي يقول: أتحمل عار الهمج الرعاع والفاقدين

---

(١) نهج البلاغة خطبة القاصعة ١٩٢ .

للعلم والوعي والمعرفة ولا أتحمل عذاب الله الواحد القهار، وأما من عكس الشعار وقال: (النار ولا العار)، فذلك الذي يقلب الإسلام على وجهه وينتهك حريمه وينقض ميثاقه.

وعاقبة هذا النهج هو الذل والهوان وإحلال الأُمّة دار البوار؛ لأن من فقد الإيمان فقد الأمن ومن ترك السلام تركته السلامة. ومن لجأ إلى عشيرته وحزبه أوكله الله إليها...

وحينئذ فالنتيجة هي كما قال أميرالمؤمنين: «**وَإِنَّكُمْ إِنْ لَـجَأْتُمْ إلى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أهل اَلْكُفْرِ ثُمَّ لا جَبْرَائِيلُ وَلا مِيكَائِيلُ وَلاَ مُهَاجِرُونَ وَلا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلّا اَلْـمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ**»(١).

٤ ـ النظم العبادي:

للعبادة معنيان؛ معنى عام وهو كل عمل يقصد به التقرب إلى الله سبحانه وطبقاً لهذا المعنى فإن كل أعمال الإنسان في جميع مجالات الحياة تكون عبادة إذا قصد بها التقرب إلى الله.

وللعبادة معنى خاص وهو المناسك والشعائر، وهو المقصود هنا من النظم العبادي، حيث ان العشوائية والعفوية وعدم المنهجية مرفوضه في كل أعمال الإنسان حتى الذكر والعبادة... والله سبحانه هو الخالق العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء وخلقه بقدر ووضعه في موضعه ويريد من الإنسان خليفته أن يتخلق بحكمته ويضع الأشياء في مواضعها أيضاً. والعبادات والشعائر تلعب دوراً أساسياً في حياة الإنسان لما لها من أهداف كبيرة ومؤثرة في الجانب

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

الروحي والعقلي والاجتماعي... ولها ارتباط وثيق بكل جوانب الحياة الإنسانية وهذا لا يتحقق الا إذا تم مراعاة شروط صحتها ونجاحها من حيث الكم والكيف والزمان والمكان وعلاقتها بالفرائض الأخرى... ولذلك فقد أولى النهج العلوي أهمية لتنظيم العبادات في المحاور التالية:

أ ـ الاهتمام بوقت الصلاة والمحافظة عليها:

كان أميرالمؤمنين عليه السلام يوصي أصحابه ويقول: «**تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ وَحَافِظُوا عَلَيْهَا وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا وَتَقَرَّبُوا بِهَا فَإِنَّهَا كانَتْ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً أَ لا تَسْمَعُونَ إلى جَوَابِ أهل النَّارِ حِينَ سُئِلُوا ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ اَلْـمُصَلِّينَ وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ اَلذُّنُوبَ حَتَّ اَلْوَرَقِ وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ اَلرِّبَقِ وَشَبَّهَهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِالْـحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ اَلرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي اَلْيَوْمِ وَاَللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ اَلدَّرَنِ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ اَلَّذِينَ لا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ وَلا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلا مَالٍ يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾** (النور:٣٧)[1].

وأوصى محمّد بن أبي بكر عندما قلّده مصر فقال:

«**صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا اَلْـمُوَقَّتِ لَـهَا وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ وَلاَ تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاَتِكَ**»[2].

فالصلاة إذا أريد لها ان تؤتي أكلها فيجب أن توضع موضعها وتتبوأ

---

(١) نهج البلاغة الخطبة١٩٩.

(٢) نهج البلاغة الكتاب٢٧.

مكانتها بأن يعرف الإنسان حقها كينبوع الماء المتدفق في كل يوم خمس مرات ليغتسل به المصلي فيطهره من جميع الخبائث الإنسانية أو انها الرأس المحرك أو القلب النابض الذي يشحن سائر أعمال الإنسان بالحركة والحياة... فإذا كانت الصلاة قائمة ولم تكن نائمة وجامدة وميتة فإنها سوف تكون كالعمود الذي إذا قام قامت به بقية أجزاء خيمة الحياة.

وللصلاة وقت يجب ان تؤدى فيه ولكن الالتزام بالصلاة في أول وقتها يجب ان يكون بداعي الشوق والانتظار لا بداعي الفراغ والخلاص منها لأجل التفرغ لغيرها. فالإنسان المصلي ينتظر الصلاة ليقول: «**أرحنا بها يا بلال**» ولا يقول: «أرحنا منها».

وإذا كانت الأعمال تابعة في روحها وحيوتيها واستقامتها للصلاة فمن أراد الفلاح والنجاح والبركة في أعماله فلا يقدمها على الصلاة بل ان شعاره دائماً انه يقول للأعمال إذا نادته لإنجازها: أصلي ثم أنجزك ولا يقول للصلاة إذا رفع الأذان لها أنجز أعمالي ثم أقيمك.

ب ـ مراعاة الأولويات:

وهو أمر مهم وحساس جداً في تصحيح الثقافة العبادية والشعائرية للأمة حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِذَا أَضَرَّتِ اَلنَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا**»(١).

وقال عليه السلام: «**لاَ قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إذا أَضَرَّتْ بِالْفَرَائِضِ**»(٢).

فإذا قلنا بأن الفرائض تعني مطلق الواجبات التي يجب على القيام بها فإن

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٢٧٩ .

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٣٩ .

هذا الكلام العلوي المقدس يؤسس لقاعدة فقهية وثقافية يكون لها دور كبير في تنظيم النوافل والشعائر والأعمال الخيرية فالإمام عليه السلام يرفض النظرة التجزيئية والانتقائية للتعامل مع النوافل والشعائر، وللأسف فإن هذا النحو من النظر والتعامل هو السائد على ذهنية الكثير اليوم... فتراه يتعاملون مع الصلاة المستحبة أو الدعاء أو زيارة الأئمة المعصومين عليهم السلام أو الحج المستحب أو العمرة وكأنها عبادات مستقلة منفصلة عن الدين والمجتمع والفرائض الأخرى... غافلين من ان روح هذه الأعمال في قصد التقرب بها إلى الله وهدفها هو إصلاح الفرد والمجتمع فإذا تزاحمت مع الفرائض الأخرى والواجبات والمصالح الاجتماعية العليا التي أرادتها الشريعة فإنها تفقد روح التقرب وهنا أميرالمؤمنين وبعد ان يذكر كبرى القياس المنطقي في أحد قوليه المذكورين وهي قوله: (لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض) يذكر النتيجة لهذا القياس ويصبغها بصبغة الأمر فيقول (إذا أضرت النوافل بالفرائض فارفضوها).

وهذا الأمر العلوي لا يبقي مجالاً لأتباع أميرالمؤمنين للتعامل بعفوية وعشوائية مع الأعمال المستحبة وإنما يجب أن تنظم بحيث لا تصطدم مع الواجبات أو تؤدي إلى الضرر والمحرمات.

إن النوافل والشعائر كصلاة الليل والدعاء وإقامة مجالس ذكر أهل البيت وزيارتهم والمشي على الأقدام إلى مراقدهم المقدسة والحج المستحب والعمرة وبناء المساجد والحسينيات كل ذلك من الأعمال العظيمة التي توجب الثواب العظيم وتترك أثراً كبيراً على المجتمع ولا أحد يرضى بتركها أو التقليل من أهميتها، ولكن هذه الأعمال كالطعام أو الدواء للإنسان إذا لم يستعملها الإنسان بالنحو الصحيح فإنّه لا يحرم من نفعها وقوتها وشفائها فحسب بل إنها تعود

عليه بالضرر والخسران.

إننا نفتخر بمجالس العزاء والمسيرات المليونية لزيارة سيد الشهداء وسائر الأئمة الأطهار النجباء ولكننا نرى واجباً علينا ان نحافظ على المشهد المقدس الذي تهفو له الضمائر والقلوب من أن تشوبه شائبة تغير وجهه الجميل.

ولذلك فإنّنا يجب أن نلفت نظر أحباب الحسين والأئمة الأطهار ان سيد الشهداء الثائر المضحي بكل شيء من أجل إصلاح أمة جده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يرضى بأن تتحول مجالس عزائه ومواكبه وزيارته إلى ذريعة للتنصل من الفرائض الشرعية والاجتماعية وحجة لترك المسؤولين مسؤولياتهم وأصحاب الأمانات أماناتهم وواجباتهم الصحية والخدمية والعلمية ومن كانت تضحيته وثورته من أجل أداء الواجب وترك المحرم كيف يرضى بأن تؤدى مجالس ذكره وزيارته إلى ترك الواجب وارتكاب المحرم؟

ومن مظاهر إهمال الواجبات والاهتمام بالمستحبات مما يقوم به الكثير من الأغنياء بصرف المليارات سنوياً من أجل الحج المستحب والعمرة والزيارات المتكررة وفي وقت ينخر فيه الفقر والجهل والفساد في جسد الأُمّة وهي في أمس الحاجة لهذه الأموال لإقامة أودها وسد ثغراتها وإصلاح فسادها ومواجهة أعدائها وإشباع جائع وإعانة فقير أو تعليم جاهل أو تشغيل عاطل.

فما أعظم الإنسان عند الله عندما يؤدي حجه الواجب إلى بيت الله وفي السنين التالية يفسح المجال للملايين المنتظرين الذين لم يحجوا بعد ويحج هو لا إلى بيت الله وإنما إلى عيال الله المتلهفين إلى مال الله الذي جعله الله أمانة بيد الأغنياء... فيتقرب إلى الله في هذه المرة لا بصرف المال من أن أجل أن يطوف حول بيت أو يستلم حجراً أو يسعى بين تلين أو يقف على جبل وإنما بصرفه في

الطواف حول الجياع لإشباعهم وفي السعي بين المساكين لإعالتهم وفي استلام الأيتام لكفالتهم وفي الوقوف على حال المرضى لعلاجهم والمشردين لإيوائهم والعاطلين لتشغيلهم والجهال لتعليمهم وتوعيتهم.

ومن مظاهر عدم مراعاة الأولوية للواجب على المستحب هو حالة الفوضى في الأعمال الخيرية والتبرعات... فنرى مساحة ضيقة تكتظ بالمساجد والحسينيات مما يؤدي لا إلى تشتيت الجهود وتضعيف الأعمال العبادية وتفريق الجماعة فحسب بل انه يؤدي في كثير من الأحيان إلى التقاطع والنزاع... مما أدى بالبعض ان يفضلوا بيوتهم على المساجد كي يكونوا حياديين مع الجميع!

وترى منطقة أخرى يسكنها الآلاف من الناس وليس فيها مسجد والناس يصلون في بيوتهم فرادى. وهذه هي نتيجة عدم النظم. ان المنطقة الأولى يصلي أهلها في البيوت بسبب كثرة المساجد، والمنطقة الثانية يصلي أهلها في البيوت أيضاً لعدم وجود المسجد كما ان النظم العبادي والأعمال الخيرية لو وجد فإنّه يقتضي أن لا تصب التبرعات والنذور كلها في بناء المساجد والمعابد ففي الكثير من مدننا وبلداننا اليوم يجب أن يوجه المتسابقين إلى الخيرات إلى المصاديق الأهم للمشاريع الخيرية كالمؤسسات العلمية والتوعوية والتبليغية والمبرات ومراكز إعانة الشباب على الزواج ومساعدة الفقراء والمنتديات الثقافية والرياضية التي تحفظ شبابنا من الانحراف واللهو المحرم.

ومن مظاهر الفوضى وعدم النظم التي ينبغي على اتباع النهج العلوي أن يتجنبوها هي مراسم العزاء التي لا تكترث بوقت الصلاة، وقد قطع صاحب العزاء سيد الشهداء أعظم ملحمة في التاريخ ثورة عاشوراء من أجل الصلاة فكيف لا يقطع أحباب الحسين الاحتفال بذكرى عاشوراء من أجل الصلاة؟

ومن نظم إقامة الشعائر ان نختار الزمان والمكان الذي لا يؤدي إلى قطع الطرقات والتسبب في أذى الأطفال والشيوخ والمرضى.

ج ـ تجنب الكثرة المملة :

التفاتة جميلة من أمير الحكمة والجمال ومعلم البشرية النظم والإتقان وهي في الواقع تستحق ان تكون قاعدة سلوكية تعمل بها الأُمّة في العبادة الفردية والشعائر الاجتماعية. وهي أن الأمر إذا دار بين العمل الكثير المشوب بالأخطاء والشبهات والأتعاب والتبعات وبين العمل القليل النقي الخالص... فإن الثاني هو المتعين لأن الأول لا نصيب له من البقاء بسبب ملل الناس منه وإعراضهم عنه والثاني لما فيه من صفة الجذب والجمال يبقى لإقبال الناس عليه والقليل الدائم في العبادات والشعائر خير من الكثير المقطوع المتروك. وقد أكد عليه السلام على هذه القاعدة في ثلاثة مواضع فقال: «**قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ**»(١).

وقال أيضاً: «**قَلِيلٌ مَدُومٌ عَلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ**»(٢).

وقال عليه السلام : «**فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ اَلْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ اَلْكَثِيرِ**»(٣).

وفي الإطار نفسه فمن نظم الحياة العبادية للأمه نرى أميرالمؤمنين يؤكد على الولاة وأئمة الجماعة أن يهتموا بجذب الناس إلى الجماعة بأن لا يطيلوا الصلاة والقراءة... ويسمى إطالة الصلاة التي تنفر الناس بالفتنة.

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٢٧٨.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٤٤٤.

(٣) نهج البلاغة الحكمة ٢٨٩.

قال في كتاب عام للولاة حول الصلاة: «**وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلا تَكُونُوا فَتَّانِينَ**»(١).

ويقول عليه السلام لواليه على مصر مالك الأشتر: «**وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلاَ مُضَيِّعاً فَإِنَّ فِي اَلنَّاسِ مَنْ بِهِ اَلْعِلَّةُ وَلَهُ اَلْحَاجَةُ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه واله حِينَ وَجَّهَنِي إِلى اَلْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ فَقَالَ صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**»(٢)، لا أعتقد إن أحداً يلتذ بالصلاة والمناجاة كإمام المتقين علي... ولكنه مع ذلك كله يوصيه النبي بعدم إطالة الصلاة إذا صار إماماً للناس لأنه سوف يصبح منفراً مضيعاً... وما يكون منفراً ومضيعاً للناس فإن النهج النبوي والعلوي ينهى عنه حتى وإن كان صلاة علي بن أبي طالب إمام المتقين وسيد الخاشعين، أليس في هذا درس كبير لنا أتباع علي في أن نتجنب المراسم العبادية والشعائر والمجالس الطويلة والمملة التي تنفر الناس وتضيعهم.

٥ ـ النظم الثقافي والعلمي:

الإسلام العلوي يريد أن يبني حضارة قائمة على العلم والوعي والمعرفة ولذلك لا ترى في نهج البلاغة تاكيداً على شيء كالتأكيد على العلم... بل ان عليا عليه السلام في تقسيمه للناس يرى ان الخارج عن طريق العلم خارج عن إطار الإنسانية... فيقول: «**النَّاسُ ثَلاَثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَأوا إِلى رُكْنٍ وَثِيقٍ**»(٣).

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٥٢.

(٢) نفس المصدر .

(٣) نهج البلاغة الحكمة ١٤٧ .

فمن لا يسير في طريق العلم والتعلم فهو من أتباع الناعقين وليس من أتباع علي وأهل البيت لأن أهل البيت وهم امتداد النبوة عرفهم أميرالمؤمنين بقوله: «**فَإِنَّهُمْ عَيْشُ اَلْعِلْمِ وَمَوْتُ اَلْـجَهْلِ**»(١).

فعلائم أتباع أهل البيت هي العلم والوعي وعلامة مخالفيهم هي الجهل ولذلك ترى علياً وأبنائه قد فتحوا قلوبهم وأحضانهم للمتعلمين والسائلين بل وحتى للناقدين والمعترضين. انظروا إلى علي ماذا يقول للناس مع عظمته وعلو شأنه وهو في أيام خلافته وسلطانه: «**فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ اَلْـجَبَابِرَةُ وَلا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ اَلْبَادِرَةِ وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالْـمُصَانَعَةِ وَلاَ تَظُنُّوا بِي اِسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلاَ اِلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فإنّه مَنِ اِسْتَثْقَلَ اَلْـحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أو اَلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ اَلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أو مَشْوَرَةٍ بِعَدْلٍ فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ وَلاَ آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلّا أَنْ يَكْفِيَ الله مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي**»(٢).

وبذلك تستبين لنا الرؤية العلوية لمكانة العلم في المجتمع فالمجتمع الذي توصد فيه أبواب النقد ويحظر فيه السؤال وتختفي فيه مظاهر طلب العلم والبحث والتحقيق فهو المجتمع الأرذل والمتخلف... والمجتمع الذي يسعى لتحقيقه النهج العلوي هو المجتمع الذي يدخل جميع أفراده في حركية تنموية علمية بين عالم ومتعلم، ويفتح الجميع صدره للنقد والإصلاح بما في ذلك صاحب المقام السياسي والديني الأعلى في المجتمع.

ولكي تؤدي عملية التنمية العلمية دورها وتحقق أهدافها في تحقيق الوعي

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٣٩.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٢١٦.

والتطور العلمي والثقافي فقد جاء في نهج البلاغة ما يمكن أن نسميه بمحاور التنمية العلمية والنظام العلمي والثقافي وهي كما يلي:

أ ـ البحث عن العلم النافع:

عمر الإنسان في هذه الحياة محدود ولديه هدف كبير يستوعب تحقيقه كل عمره مهما طال ولذلك فإن عليه أن يستثمر كل جزء من هذا العمر لأجل الحركة باتجاه هذا الهدف... وكل حركة نحو الهدف بحاجة إلى علم يسبقها وإلا كانت حركة عشوائية لأن «**الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ فَلا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ إِلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَ سَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ**»(١).

فالحركة بغير علم قد تكون حركة مخالفة للهدف... والعلم الذي لا يهدي الإنسان نحو هدفه كالجهل... ولذلك نرى تأكيد أمير العلم والعلماء على العلم النافع حيث يقول لولده الحسن عليه السلام فإن خير القول ما نفع: «**وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ**»(٢)، وقال في وصف المتيقن: «**وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى اَلْعِلْمِ اَلنَّافِعِ لَـهُمْ**»(٣).

ماهو العلم النافع؟

والعلم النافع هو الذي يكشف للإنسان الحقائق التي في نفسه وخارجها مما يهديه إلى إشباع حاجاته المادية والروحية الفردية والاجتماعية وإصلاح

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٥٤.

(٢) نهج البلاغة الكتاب ٣١.

(٣) نهج البلاغة الخطبة١٩٣.

الأرض وإعمارها... ومن صرف عمره في طلب ما عدا ذلك من المعلومات التي لا أثر لها في حياة الإنسان فقد قام بتضييع العمر وهو يتراجع عن هدفه... ويترك مسؤوليته وأمانته... والعمر هو رأس المال الوحيد الذي أعطي للإنسان ليربح به الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة فإذا أفنى الإنسان عمره في الترهات والسفاسف والقيل والقال والبحث عن المعلومات الترفيهية فقد خسر الدنيا والآخرة.

ويبين عليه السلام نموذجاً من العلم غير النافع وهو تحريف علم النجوم واستخدامه لأجل التكهن بالمستقبل والإخبار بالخير والشر وبالنفع والضر على طريقة الكهانة فيترك الناس عقولهم ويعتمدون على التخرصات الغيبية والتنبؤات والإمام ينهي بشدة عن هذا النحو من العلم ويأمر بمخالفته... وذلك عندما قال: «أَيُّهَا اَلنَّاسُ إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ اَلنُّجُومِ إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أو بَحْرٍ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلى اَلْكَهَانَةِ اَلْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ وَاَلْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ وَاَلسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ وَاَلْكَافِرُ فِي اَلنَّارِ»(١).

المنهجية الهادفة مسؤولية المؤسسات العلمية :

الأمر العلوي بالاقتصار على العلم النافع يوجب على المؤسسات التربوية والعلمية كالمدارس والجامعات والوزات العلمية أن تضع لطلبتها المناهج العلمية المتناغمة مع واقع الأُمّة والموجهة للارتقاء بالمستوى العقلي والروحي والثقافي ومعالجة التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي... وتحقيق هذا الأمر يتقضي تشكيل لجان لدراسة واقع الجيل الحاضر وحاجاته وتطلعاته

(١) نهج البلاغة الخطبة ٧٩.

ورغباته وما ألقي في ذهنه من شبهات وما غرس في نفسه من انحرافات أوجدتها وسائل الإعلام الهادفة إلى تحطيم عوامل القوة في هذه الأُمّة وبعد التعرف على الداء... لابد من اختيار المناهج التي تكون بمثابة الدواء لذلك الداء.

ويتم علاج حالة الترف العلمي والخوض في التفصيلات غير الضرورية التي تأخذ من عمر الطالب الكثير دون فائدة... وذلك عن طريق التخصص في العلوم... فالطالب بعد مرحلة التحصيل العامة يتخصص في العلم الذي يناسب استعداده ورغبته فيتوسع في ذلك العلم.

ب ـ الانتاج العلمي:

لا يؤدي العلم دوره إذا توقف على أصله ولم يكن في حالة نمو مستمر وتجديد يواكب حاجة البشرية، فالأصول العلمية كالبديهيات والأولويات العقلية والقرآن الكريم وأحاديث النبي والأئمة الأطهار بمثابة الساق والجذع للشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها... فهذه الشجرة تتفرع منها الأغصان الجديدة والأوراق والأزهار والثمار بنحو دائم... وهذا ما يمكن ان نسميه بعملية الإنتاج العلمي، وقد أشار أميرالمؤمنين عليه السلام إلى هذه الحقيقة الهامة بقوله: «**وَلاَ عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ**»[1]. وقال عليه السلام في توضيح العلم الذي يقوم عليه العدل: «**فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ اَلْعِلْمِ وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ اَلْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ اَلْـحُكْمِ**»[2]، أي أنّ عملية التفكّر والفهم للنصوص تجعل الإنسان يصدر عن شرائع الحكم أي يستقي ويرتوي من شرائع الحكم أي يصل إلى المحل المناسب لأخذ الأحكام التي تروي الظمأ وتعالج الداء...

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ١١٣.

(٢) نهج البلاغة الحكمة ٣١.

ولذلك نرى القرآن الكريم يؤكد في مئات الآيات على التدبر والتفكر وعدم الاقتصار على التلاوة اللفظية للآيات والتوقف على ظواهرها وإنما هي خزائن طلب منا أن نفتحها ونأخذ منها ما يصلح النفوس ويعمر البلاد.

كما وطلب منا أن لا نتعامل مع النصوص تعامل الرواية وانما المطلوب هو تعامل الدراية والوعاية أي التفكر فيها ومعرفة المقصود منها وتطبيقه على شؤون الحياة. قال عليه السلام في وصف آل البيت عليهم السلام: «**هُمْ عَيْشُ اَلْعِلْمِ وَمَوْتُ الْـجَهْلِ يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ لا يُخَالِفُونَ الْـحَقَّ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ هُمْ دَعَائِمُ الإسلام وَوَلاَئِجُ الِاعْتِصَامِ بِهِمْ عَادَ الْـحَقُّ فِي نِصَابِهِ وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ لا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ فَإِنَّ رُوَاةَ اَلْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ**»(١).

وقال عليه السلام: «**اِعْقِلُوا اَلْـخَبَرَ إذا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لا عَقْلَ رِوَايَةٍ فَإِنَّ رُوَاةَ اَلْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ**»(٢).

فأهل البيت طلبوا منا ان نقوم برعاية الأحاديث ووعايتها وهذا يكون بتطبيقها على الحياة وحيث ان الحياة متجددة ومتطورة فلابد من التفكر والتعمق الصحيح بالنصوص لاستخراج الأحكام والنظريات والأنظمة والقواعد التي تلبي حاجات كل عصر وتحل مشاكله وتعطيه الموقف الصحيح مع عدم الخروج عن إطار الأصول والثوابت الإلهية.

ولذلك فإنّه عليه السلام يدعو إلى أن نقوم بعملية فهم النص، أو عقل الخبر

---

(١) نهج البلاغة الخطبة٢٣٩.

(٢) نهج البلاغة الحكمة٩٨.

والنص أو الغوص والغور في النص ومعنى ذلك ان نتعرف على الهدف والمقصود الذي يريد النص أن يبينه للناس... وانّ في النص نوراً يراد به أن يفتح آفاقاً وطرقاً للناس في الحياة وهذا النور المقتبس من النص علم جديد حصل بواسطة التعقل والتفكر في النص وتطبيقه على الحياة.

ج ـ اختيار الخطاب الديني المناسب:

وهذا المحور من أهم محاور النظم العلمي والثقافي في النهج العلوي فيما يخص التبليغ ومخاطبة الناس، يقول أميرالمؤمنين في طريقة التبليغ التي كان يتبعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيصفها بهذا النحو: «**طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ وَآذَانٍ صُمٍّ وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ اَلْغَفْلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ**»[1].

هكذا وصف لنا خليفة النبي ووصيه خطاب النبي وطريقة تبليغه.

والعلماء والخطباء وحملة أمانة الرسالة أولى الناس اقتداءً وتأسّياً بالرسول الأعظم. وذلك بأن يكون خطابها للناس حاملاً للمواصفات التالية:

١ ـ ان صاحب الخطاب منبر جوال بين الناس يوصل الخطاب إليهم لا أن ينتظر من الناس أن يدعى من قبلهم كي يذهب إليهم... ويشترط عليهم أن يرجع منهم مكللاً بالتقديس والاحترام محملاً بالعطايا والإكرام...

٢ ـ حامل الخطاب الديني طبيب الناس، والطبيب يصف للناس ما يحتاجون، ولا يعطيهم ما يشتهون وكما ان الطبيب يشخص الداء ثم يرشد المريض إلى الدواء والعلاج مهما كان مراً أو مؤلماً... ومبلغ رسالات الله كذلك

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٠٨.

يجب أن يوصل إلى الناس كلمة الحق التي تصلحهم وإن كانت ثقيلة على أنفسهم... وأن لا يكون همه كثرة المريدين والأتباع على حساب كلمة الحق، فطريق علي هو طريق الحق وإن قل سالكوه فهو القائل: «**لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ اَلنَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً**»(١)، وهو القائل لأبي ذر حين نفي إلى الربذة: «**لا يُونِسَنَّكَ إِلّا الْـحَقُّ وَلا يُوحِشَنَّكَ إِلّا اَلْبَاطِلُ**»(٢).

ومن المؤسف ما يقوم به البعض من الخطباء والمحطات الفضائية ممن لا همّ لهم إلا أن يكثر خلفهم صفق النعال والدبكات أو يعلو أمامهم ضجيج التصفيق والصلوات فتراهم بدلاً من أن ينبهوا الناس على أسباب الضعف والتخلف التي تعانى منها الأُمّة ويدلوهم على عوامل القوة والثروة العلمية والمعنوية في دينهم ويعرضوا لهم الصور الإنسانية الشامخة في حياة الأنبياء والأئمة، فإنهم يتركون مسؤوليتهم الإلهية في تبليغ رسالات وإنذارهم لعلهم يحذرون ويقتصرون على ما يجمع حولهم من الناس الذي هم بطيعتهم ميالون إلى الاستماع إلى الخوارق والأخبار الغريبة والمنامات والخرافات فيزداد الناس بمثل هذه الخطابات جهلاً بدلاً من العلم والوعي وتعاجزاً وتكاسلاً وتواكلاً بدلاً من السعي والجد والاجتهاد.

٣ ـ الخطاب التبليغي والثقافي لا ينهض به إلا أهله لأنه كتشخيص الدواء من قبل الطبيب وكما ان من ادعى الطبابة بغير علم فقد خان الأُمّة كذلك فإن تصدي من لا علم له بالدين ولا معرفة له بداء الأُمّة ودوائها خيانة أكبر من خيانة المدعي للطبابة لأن ذاك يعالج الأجسام ويبني الأبدان وهذا يصلح

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ١٣٦.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٣٠.

الأرواح والنفوس ويبني أواصر المجتمع... وهذا يحتم على المؤسسات العلمية والاجتماعية وخاصة الحوزة العلمية أن تتخذ الاجراءات والتدابير اللازمة للمنع الشديد من انتحال اسمها وشعارها.

٤ ـ لابد من وجود مؤسسات ثقافية وإعلامية وتبليغية تقوم بين الحين والآخر بدراسة وضع الأُمّة وحاجات الجيل الصاعد والأمراض والآفات والشبهات التي تحصل في المجتمع من الداخل والخارج وتضع الخطاب المناسب لعلاجها وبدرجات ومستويات مختلفة وتجهيز المبلغين ووسائل الإعلام بهذا الخطاب وبدرجاته المختلفة وإرسالهم إلى الأمة... فالخطاب يجب أن يكون متنوعاً في مادته الخطابية وأسلوبه حسب نوع المخاطب وكذلك الزمان والمكان.

٥ ـ أن يتحوّل الخطاب المنبري من خطاب إلقائي من جانب واحد إلى خطاب إلقاء وتلقي من جانبين وذلك بفتح باب السؤال والنقد للمخاطبين كما كان يفعل أميرالمؤمنين عليه السلام كما يظهر من بعض خطب نهج البلاغة. حيث يقوم البعض بتوجيه السؤال إلى الإمام أثناء كلامه والإمام يجيبه ولاينهاه عن السؤال.

٦ ـ تبليغ الخطاب الديني يحتاج إلى كفاءة عملية إضافة إلى الكفاءة العلمية بل هي أهم، والكفاءة العملية بأن يستعمل علمه ويوافق فعله قوله، وإلا فإن ذلك يؤدي إلى صدود الناس عن تعلم العلم واستماع الخطاب وكما قال أمير المؤنين لجابر بن عبد الله الأنصاري: «**يَا جَابِرُ قِوَامُ اَلدِّينِ وَاَلدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ وَجَاهِلٍ لاَ يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَجَوَادٍ لاَ يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ وَفَقِيرٍ لاَ يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اِسْتَنْكَفَ الْـجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَإِذَا بَخِلَ اَلْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ اَلْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ**»[1].

(١) نهج البلاغة الحكمة ٣٧٢.

فالكفاءة العملية أساس في نجاح العمل التربوي والثقافي وتبليغ الخطاب الإلهي وياحبذا لو ان العمل التبليغي يتم عبر منح شهادة للمبلغ مشروطة بالكفاءة العملية إضافة إلى الكفاءة العلمية... بحيث تسحب منه هذه الشهادة إذا خالف الشروط كما يحصل لإمام الجماعة والوكلاء والمعتمدين... بل هذا أمر جار في كل المهن الأخرى التي يخالف صاحبها القوانين المدنية... والعجيب ان قائد العجلة تسحب منه إجازة القيادة إذا خالف علامات المرور وبائع الأطعمة يعلق حانوته إذا خالف الشروط الصحية ولكن المتصدي لتبليغ الدين وقيادة الأرواح لا يوقف من عمله وان خالف حدود الله وقلب الدين على وجهه!

٧ ـ الخطاب الديني يجب أن يكون بلغة العصر لا في ألفاظه فحسب وإنما في معانيه أيضاً، حيث ان الكثير من المفاهيم الإسلامية قد تعرضت للتشويه بسبب التحريف العلمي والعملي الذي قام، والصديق الجاهل والعدو الحاقد ومذاهب التفريط والإفراط التي نشأت في كنف الحكومات المنحرفة التي تعاقبت على هذه الأمة.

وقد مكن هذا التحريف دعاة الحضارة، الغربية والمخدوعين بها أن يبعدوا شباب هذه الأُمّة عن دينها وذلك بعرض صورة الدين المحرفة الفاقدة لعناصر القوة والجمال فعلى الخطاب الديني ان يعيد للأمة ثقتها بدينها بأن يعرض الصورة الحقيقية للدين والتي تدعو إلى الحياة والإعمار والعلم والإصلاح والعدل والقسط وعليه فإن خطاب الموعظة مثلاً في هذا الجو الثقافي المعاصر الذي يتهم الإسلام بأنه أفيون مخدر للشعوب وإنه يأمر برفض الدنيا والمال والولد والحركة والتغيير... ويرفض الأنس والفرح والسرور والفن والرياضة... في مثل هذا الجو ينبغي على خطاب الوعظ أن يبين للناس ان الدين

لا يأمر برفض الدنيا بما انها أرض وبشر وسماء وثروات بل هو لا يسمح بترك الدنيا بهذا المعنى وإنما المرفوض هو التعلق بما في الدنيا من مال وشهوات ورغبات وتطلعات وجعلها هدفاً على حساب الآخرة.

والدين يصلح الدنيا ويملأها بالسعادة والأمن والمحبة والوئام عندما يجعلها وسيلة وطريقاً ومزرعة للآخرة. فمن يؤمن ويتمسك بالدين فإن إيمانه وتمسكه بالدين لا يسمح له بأن يترك الدنيا ويعتزل الناس وإنما يأمره التزامه بالدين بإصلاح نفسه ثم إصلاح مجتمعه خلال الطعام الحلال وبطيب القول، بزواج المودة والرحمة، بالخلق الإنساني والعدل والإحسان، بالدعوة إلى السلم والأمن والمحبة... وعليه فإن خطاب الموعظه يجب أن يفهم المخاطبين بأن الله يريد منا أن نسعى إلى الآخرة الخالدة عن طريق بناء الدنيا الطيبة الصالحة... وان المؤمن الحقيقي هو الذي يفوز بكرامة الدنيا وسعادة الآخرة... وقد بين أميرالمؤمنين هذا المعنى لواليه على مصر محمد بن أبي بكر فقال: «**وَاِعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّ الْـمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الأخِرَةِ فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْـمُتْرَفُونَ وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْـجَبَابِرَةُ الْـمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ اِنْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْـمُبَلِّغِ وَاَلْـمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ الله غَداً فِي آخِرَتِهِمْ لا تُرَدُّ لَـهُمْ دَعْوَةٌ وَلاَ يُنْقَصُ لَـهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ**»[1].

لاحظوا كم ان هذا الخطاب يختلف عن خطاب الموعظة السائد على المنابر والذي يقول للناس إذا أردتم الآخرة فيجب أن تتركوا الدنيا وما فيها... وان

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٢٧.

تمنعوا أنفسكم من جميع اللذات والرغبات. لكن هذا الخطاب يقول ان من يريد الآخرة سوف يحصل على اللذات المادية الطيبة الطاهرة إضافة إلى اللذات الروحية والمعنوية... وان الذي يترك طريق التكامل الإلهي ويسلك طريق المحرمات والمعاصي فإنّه لا يحصل إلا على دنيا الخبائث والأرجاس والقيود والأغلال، فهو الخاسر والمحروم الحقيقي في هذا الوجود وقد أوضح أميرالمؤمنين هذا المعنى في دعاء الصباح عندما قال: «**وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحَارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلانُكَ إلى حَيْثُ النَّصَبِ وَالْحِرْمَانِ**»(١).

فالحياة الطيبة في الدنيا لا يحظى بها إلا الإنسان المؤمن لأن غير المؤمن يقضي دنياه ركضاً خلف سراب التكاثر والجمع ولا يشبع والمؤمن يسعى نحو الحلال والطيبات ويقنع وتطيب نفسه بكل مايقسم له بعد السعي والعمل كما انه سعيد باللذات المعنوية والروحية التي حرم غيره منها لجهله بها.

وأمّا الدنيا التي ذمّها أمير البيان في نهج بلاغته، فليست هي الدنيا بمعنى الأرض والسماء والشجر والحيوان والماء، كيف وهي آيات ونعم وآلاء، وليس الأزواج والأولاد، كيف وهم قرّة أعين وحسنات، وليس هي المال والمسؤولية والإمرة، كيف وهما قوام حياة الناس بها... إنّما الدنيا المذمومة هي التعلّق بهذه الأُمور، بأن ينظر الإنسان إليها ولايرى شيئاً وراءها، فتكون هي الغاية القصوى والهدف الأكبر، فإذا كان كذلك فقد ضيّع الإنسان هدفه الحقيقي وراح يدور في حلقة مفرغة وعميت عينه برؤية السراب عن رؤية الماء الزلال ولا داعي للإطناب في البيان ولأمير الكلام في هذا المعنى قاعدة في كلمات موجزة في ألفاظها غنية في معانيها ظاهرها أنيق وباطنها عميق وفيها يميّز بين الدنيا

---

(١) مفاتيح الجنان عباس القمي دعاء الصباح المنسوب لأميرالمؤمنين عليه السلام.

المحمودة والمذمومة، فيقول: «**وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ**»[1]، الله أكبر ما أعظمها من كلمات ترسم أعظم خارطة حياة للبشرية في أقل من سطر واحد بل في كلمتين فصلاح الدنيا وفسادها، سعادة الإنسان وشقاؤه بين الواسطة والهدف بين الوسيلة والغاية، بين (بها) و(إليها)... إذا نظر بها فقد امتطى على ظهرها ليبلغ أعلى عليين وإذا نظر إليها امتطته فهوت به إلى أسفل سافلين؛ ولذلك فإن الشريف الرضي عندما يصل إلى تحرير العبارة في كلام جدّه وسيّده وإمامه لا يملك إلا أن يقف وقفة إعجاب وإجلال واحترام فيقول: «وإذا تأمل المتأمل قوله عليه السلام: «ومن أبصر بها بصرته» وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته، ولا يدرك غوره، لاسيما إذا قرن إليه قوله، ومن أبصر إليها أعمته، فإنّه يجد الفرق بين (أبصر بها)و (أبصر إليها) واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً صلوات الله وسلامه عليه...».

ولذلك فان الخطاب الذي يطلب من الناس ترك الدنيا ليس خطاباً علوياً... لأن ترك الدنيا يعني ترك الدين... فما الدين إلا عبادة الله بإصلاح الدنيا وزراعة الآخرة بالعمل في الدنيا... ولذلك نرى أميرالمؤمنين يجابه بشده هذا النحو من التفكير الرهباني ويقول وقد سمع رجلاً يتحدث في ذم الدنيا: «**أَيُّهَا اَلذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْـمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا الْـمُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا أَنْتَ الْـمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْـمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ**»، أي انّ الدنيا بما هي مخلوق إلهي ليس لها ذنب إنّما الذنب على الإنسان الذي يسيء استخدامها بجعلها هدفاً وإلا فهي ميدان كمال الإنسان إذا أحسن الإنسان التعامل معها... وكما يقول الإمام في بقية كلامه: «**إِنَّ اَلدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِـمَنْ صَدَقَهَا وَدَارُ عَافِيَةٍ لِـمَنْ فَهِمَ عَنْهَا وَدَارُ غِنًى**

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٢.

لِـمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِـمَنِ اتَّعَظَ بِهَا مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ الله وَمُصَلَّى مَلاَئِكَةِ الله وَمَهْبِطُ وَحْيِ الله وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ الله اِكْتَسَبُوا فِيهَا اَلرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْـجَنَّةَ»[1].

اللهم اجعلنا منهم بفضلك وجودك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٣١.

نهج البصيرة

المشكلة العظمى التي واجهها الإسلام بعد رحيل الرسول الأعظم ﷺ والى يومنا هذا هي مشكلة (التأويل) وهي التي أدت إلى تحريف الإسلام عن مساره وحرمان البشرية من النهج الذي يهديها إلى الحياة الأقوم، وللتأويل معان كثيرة، ونعني به هنا تطبيق مفاهيم الإسلام على مفردات الحياة المتجددة والمستمرة واستنباط الفروع و المواقف من الأصول والقواعد القرآنية.

ولم يكن هذا الأمر مهملا في منهج السماء كيف وانه امر مصيري يرتبط به بقاء الإسلام واستمراره في الحياة

فالنبي الكريم الذي اختارته السماء للتنزيل بان يتلقى الوحي بقلبه ويبلغه بلسانه وسيرته فإنها لم تهمل أمره ببيان طريق استمرار الرسالة وتطبيقها...

وأن الرب الكريم الرحيم الذي بعث نبيا للتنزيل سماه الرسول أو النبي، فإنّه نصب أماماً للتأويل والتطبيق سماه الولي وقال لنبي التنزيل (يأيها الرسول) بلغ الامه بنصب أمام التأويل ولا تخف من لوم اللائمين وكيد الكافرين واعلم يأيها النبي كما انك إذا لم تبلغ التنزيل فما بلغت رسالته، كذلك إذا تركت تعيين

أمام التأويل (فما بلغت رسالته) فالإسلام كما يحتاج إلى محمد ﷺ للتنزيل وتأسيس الرسالة فإنّه يحتاج إلى علي ونهج علي لتطبيق الرسالة واستمرارها .

وهذا هو دور الولي والولاية ولولاه لم اكتمل الدين ولا تمت النعمة ولم يصبح الإسلام ديناً مرضياً ولم يبلغ الرسول رسالته ..

والذي ثبت على الحق وبقى متمسكا بخط الرسول والرسالة هو الذي عرف الولاية وتمسك بمن جعله الله للولاية ولإمامه وقيادة تأويل القرآن بعد اكتمال التنزيل، وهؤلاء هم الاتباع الحقيقيون لرسول الله والسائرون في سبيل الله وعلى بصيرة .

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (يوسف: ١٠٨).

هؤلاء هم أصحاب البصائر .. الذين ثبتوا على خط الرسول ولم يغيروا تغييرا ولم يبدلوا تبديلا بعد الرسول ﷺ في زمن اخترقت الاذهان وأجهزة الفكر والعقيدة فيروسات التقاليد العشائرية والقرشية والمصلحية والميكافيليه والبراجماتية فجعلت القرآن يتجه بعيداً عن الأهداف... وصار التأويل يقاد بالهوى بدلا عن الهدى ولكن الذي ثبت على سبيل الله ورسول والذي اصغى بسمعه وقلبه وعمله إلى قول الله (قل هذه سبيلي...) هو الذي حقق مواصفات السبيل الإلهي وهي: (سبحان الله وما انا من المشركين) اي الطريق المنزه من اي ظلم والمنقى من كل شرك، وذلك بأتباعه امام العدل والتوحيد، وهذه هي البصيرة، وعمار نموذجاً، ولذلك يؤكد الرسول على ألامه أن تكون مع عمار حيث كان . فقد روي فيه انه قال «إذا اختلف الناس كان ابن سميه مع الحق»

وفي حديث آخر «عليكم بابن سمية فإنّه لا يفارق الحق حتى يموت»(١).

ولذلك يتأوه إمام التوحيد والعدل على فقد عمار ويقول في اخر خطبة له في حياته ـ وقد خليت الساحة من أصحاب البصائر ـ وهو يبكي على عمار وأمثاله وتخضل لحيته الشريفة بالدموع : «اين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق أين عمار أين ابن التيهان اين ذو الشهادتين وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأُبرد برؤوسهم إلى الفجرة».

ثم ضرب عليه السلام بيده إلى لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء ثم قال: «آوه على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه وتدبّروا الغرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة ، دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فأتبعوه»(٢) .

كلمات ظاهرها أنيق وباطنها عميق تبين لنا نهج البصيرة وتوضح لنا كيف اختلف عمار من غيره وكيف استطاع أن يثبت على الحق حتى الموت، انظر إلى عمار بنفسه كيف كشف عن وعيه وبصيرته وثباته في اخر شوط من حياته المفعمة بالجهاد والصدق .

روى الاعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال شهدنا مع علي عليه السلام في صفين فرأيت عمار ابن ياسر لا يأخذ في واد ولا ناحية في صفين إلا ورأيت أصحاب محمد يتبعونه كأنّه علم لهم، وسمعته يقول لهاشم بن عتبه: يا هاشم تقدّم الجنة تحت البارقة:

اليوم القى الاحبة   محمداً وصحبه

(١) الغدير ج١٢ ص٢٥.
(٢) نهج البلاغة خ١٨٢.

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا انّا على الحق وانّهم على الباطل ثم قال:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيـل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عـن خليلـه
او يرجع الحق على سبيله[1]

كيف نال عمار تلك البصيرة التي جعلته يقاتل مع على قتال المستميتين من اجل الحق؟

بماذا اختلف عمار عن اقرأنه الآخرين الذين كانوا في معسكر معاوية أو كانوا على الحياد يتفرجون على المعركة بين الحق والباطل؟

هل أن عمار كان اكثر منهم عبادة أو تلاوة للقرآن ؟ هل كان صحابياَ ولم يكونوا أصحاباً ...؟

كلا بل ان عمار يختلف عن أولئك انه تلا القرآن فأحكم تلاوته، لم يقرا القرآن لأجل التلاوة أنما قرأ القرآن لأجل تحقيق أهداف القرآن فأرجع متشابهة إلى محكمه وثنىّ آياته وأطبقها بعضها على بعض وطبقها على الواقع وهذا هو الإحكام... ولم يصلِّ ويصم لأجل العبادة والنسك وإنما تدبر الصلاة والعبادة فوجدها معاهدة بين العبد وربّه على إقامة التوحيد وتحطيم جميع أنواع أصنام الحجر والبشر ونبذ جميع آلهة الهوى والوقوف بوجه الظلم والتمييز والطبقية... .

ومن رأى ان الدين لا يكون ألا في أحكام تلاوة القرآن وفي تدبر الفرض وإقامته، فإنّه لا يمكن أن يختار غير علي ومنهاج على اماما وقائدا لهذا الدين.

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج١٠ ص١٠٥.

ولا تأويل للقرآن المحكم ولا الصلاة القائمة والصيام المخلص والحج الأكبر إلا في علي وميزان علي... ولذلك فان من احكم تلاوة القرآن وتدبر الفرض فإنّه سوف يحيي السنة اي طريقة رسول الله وإسلامه الاصيل ويميت البدعة أي لا يسمح لان يخترق الإسلام فيروسات الجاهلية فتحرفه عن مساره وتدخل فيه ما ليس فيه، ومن كان كذلك فإنّه سوف يعرف القائد الذي يوصله إلى مقاصد الله واهدافه فيثق به ويتبعه بل سيذوب في محبته وطاعته، وهذا هو نهج البصيرة الذي عرفه عمار وسلكه...

وجهله الآخرون أو تجاهلوه...

وكم عانى أميرالمؤمنين من هؤلاء الذين لا يرون الدين إلا طقوساَ ومظاهرا ولا يعرفون من القرآن الا رسماَ وكلمات تتلى باللسان ولا تتعدى الحناجر والتراقي... لم يتدبروا آيات القرآن ويحكموا تلاوتها كي توصلهم إلى التوحيد الحقيقي الذي يوصلهم إلى الرسالة والإمامة ويأخذ بأيديهم إلى الامام الذي يجعل القرآن يتحرك على الأرض فيطيعوه طاعة محبه وثقة وإخلاص... ولا يعترضوا عليه ... .

هؤلاء الجهال المتنسكون ومسلمه المظاهر وعلماء المفاهيم المبهمة وشيعة الشعائر الخاوية هم الذين قصموا ظهر أميرالمؤمنين حتى شكى منهم وقال: «مالي أراكم أشباحا بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح ونساكاً بلا صلاح وتجاراً بلا أرباح وأيقاظا نوّماً وشهوداً غيّباً وناظرةً عمياء وسامعة صماء وناطقة بكماء»[1].

هذه هي مشكلة أُمّة الإسلام اليوم عندما أصبحت أكلة للأمم وصيدا

(١) نهج البلاغة خطبة ١٠٨.

سهلاً للأعداء تغزى ولا تغزوا وترمى ولا ترمي، ثروتها تحت اقدامها وهي فقيرة جائعة، وسلاحها بيدها وهي أسيرة ذليلة لأنها غثاء كغثاء السيل، لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه... الإسلام الذي يبنى على أساس التوحيد الكامل الخالص الذي وصفه امام الوعي والبصيرة واراد للأمة ان تبدأ ترتيب منظومتها الفكرية وعقيدتها به ...

فقال: «أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به وتوحيده وكمال توحيده الإخلاص له».

عندما أبعدت الأُمّة عن إمام التأويل الحقيقي آل أمرها إلى ثقافة إسلامية بعيدة عن أهداف القرآن.. فالأمه اليوم مقسمه بين فئة متمسكة بمظاهر توحيديه مبهمة لا توصل إلى امام عادل يطبق التوحيد على الارض، وفئة متمسكة بشعائر ولائية لم تتأسس على التوحيد فابتعدت عن اهداف الولاية.

ثقافتنا اليوم ثقافة المناسك والمظاهر وهي ثقافة تجعل الإسلام عاجزاً عن تحقيق اهدافه لأنه إسلام يجعل المسلم يتحرك في ماراثون دائري من الشعائر والمناسك وحلقة مفرغة، وهي حلقة التلاوة من اجل التلاوة... والعبادة من اجل العبادة... والشعائر من اجل الشعائر... والتعلم من اجل التعلم...

ومثل هذا الإسلام بهذا النحو من الانتماء والتطبيق لا يحقق شيئاً مما أراد، بل انّه يحقق خلاف ما أراد ويرجع بالأمّة إلى الوراء .

فإذا بالأُمّة التي أرادها الإسلام أن تكون أعلى الأُمم وخير الأُمم والشاهدة على الأُمم قد أصبحت أضعف الأُمم وأدنى الأُمم وأذلها.

جاء الإسلام ليجعل الأُمّة تعتصم به كحبل إلهي جامع ورافع ترقى به على جميع الامم واذا بهذا الحبل الجامع يتحول إلى سيف قامع ومعول هدام باسم

التوحيد يوما، وباسم حكم الله والخلافة تارة، وباسم الولاء والولاية احياناً .

فإذا بالدين الذي جاء رحمة للعالمين يصبح كابوسا ينشر الرعب والخوف بالأرض .

إنّ السبب في ذلك انّ الأُمّة بعد أن ضيّعت الامتداد الحقيقي للرسالة المتمثل بالولي الصالح اصبحت تنتمي إلى دين مبهم والدين المبهم خطر على البشرية لأنّه يحول الناس إلى مجموعات متناحرة كلٌّ منهم يدّعي أنّه صاحب الدين الصحيح وما سواه كافر، فينفتح على الأُمّة باب التكفير والتفسيق.

فإذا أردنا ديناً لا ينتهي أمره إلى التكفير فلنجعل ديننا يبدأ بالتفكير وصولاً إلى معرفة الاهداف ومن ثم معرفة القائد والامام الذي يحقق هذه الاهداف، وهذا الدين بهذا الوعي وبهذا التشخيص وبهذه البصيرة دين يبدأ بمعرفة الله بواسطة العقل والبرهان وينتهي إلى التمسك بحبل الله لا بمعناه الهلامي المبهم، بل بمعناه المشخص و بمصداقه الواضح الجلي الذي تسطع أنوار أهداف القرآن على كلّ جوانحه وجوارحه.

وقد ربى علي عليه السلام أصحابه على هذا المنهج:

يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر في تربية الإمام علي عليه السلام أصحابه كي يثبتوا على الإسلام الرسالي الأصيل ولا تلتبس عليهم الأُمور في زمن الخلافة: فعلي عليه السلام في محاولته لتسلم زمام التجربة وزعامة القضية الإسلامية كان يريد أن يوفق بين الوجه الظاهري للعمل وبين الوجه الواقعي للعمل واستطاع أن يوفق بينها توفيقاً كاملاً، وذلك في تربيته لأصحابه على انهم أصحاب الأهداف لا أصحاب الأشخاص[1].

---

(١) المجموعة الكاملة: ج١٧، أهل البيت، ص٦٤، دار التعارف، بيروت.

تشخيص أهداف القرآن:

وقد أشار أميرالمؤمنين عليه السلام الى مسألة تشخيص الاهداف في ما يخص نصوص القرآن الكريم فقال: «**ذَلِكَ القرآن فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ**»(١)، أي انّ النصوص القرآنية بشكلها الظاهري والتجزيئي لا تنطق بما يعالج مشاكل الحياة وإنما لابدّ من إمام كعلي عليه السلام أو منهج علوي يقوم بفهم وعقل الآيات والتدبر فيها بالجمع بين الآيات ومعرفة ما فيها وما جاء في السنة بشأنه من الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد والمحكم بالجمع بين الآيات ومعرفة ما فيها من الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه.

يقول عليه السلام: «**كِتَابَ رَبِّكُمْ مُبَيِّناً حَلاَلَهُ وَحَرَامَهُ وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ مُفَسِّراً جمله وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَمباين بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ أو صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ ومُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ**»(٢).

وهذا يعني انّ معرفة المقصود النهائي للقرآن لا يتم إلا بعد المعرفة التامة للآيات مع السنة الشريفة... وإخوان علي أميرالمؤمنين وأتباعه الصادقون الذين

---

(١) نهج البلاغة الخطبة١٥٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١.

يشتاق إليهم ويتأوه عليهم هم الذين يحكمون القرآن، ولا يكتفون بالنظرة التجزيئية للقرآن والتلاوة الظاهرية... فقد تكلم عليه السلام وهو يذكر بعض أصحابه المخلصين كعمار وابن التيهان وذو الشهادتين وضرب على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء ثم قال: «**أَوَّهْ عَلَى إِخْوَانِيَ اَلَّذِينَ تَلَوُا القرآن فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا اَلْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَوُا اَلسُّنَّةَ وَأَمَاتُوا اَلْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ**»(١).

وقال في خطبة له بعد ليلة الهرير ومؤامرة التحكيم وبعدما لقي من أصحاب النظرة التجزيئية والعشوائية للقرآن الذين أرغموه على قبول التحكيم بعدما خُدعوا برفع المصاحف... عندما كان الإمام يتحسّر على الأصحاب الواعين العارفين للقرآن ويقول: «**أَيْنَ اَلْقَوْمُ اَلَّذِينَ دُعُوا إلى الإسلام فَقَبِلُوهُ وَقَرَءُوا القرآن فَأَحْكَمُوهُ وَهُيِّجُوا إلى الْجِهَادِ فَوَلَـهُوا اَللِّقَاحَ إلى أَوْلادِهَا وَسَلَبُوا اَلسُّيُوفَ أَغْمَادَهَا وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ اَلأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَصَفّاً صَفّاً بَعْضٌ هَلَكَ وَبَعْضٌ نَجَا لا يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ اَلْـمَوْتَى مُرْهُ اَلْعُيُونِ مِنَ اَلْبُكَاءِ خُمْصُ اَلْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ ذُبُلُ اَلشِّفَاهِ مِنَ اَلدُّعَاءِ صُفْرُ اَلأَلْوَانِ مِنَ اَلسَّهَرِ عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ اَلْـخَاشِعِينَ أُولَئِكَ إِخْوَانِي اَلذَّاهِبُونَ فَحُقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ وَنَعَضَّ اَلأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ**»(٢).

فالتابع الحقيقي للقرآن هو الذي يشخص الهدف النهائي والأعلى للقرآن فيتبعه لا أن يقدس القراطيس دون ان يعرف معناها ومقصودها مما يؤدي إلى أن يقع فريسة سهلة لكيد الكائدين وخداع المنافقين كعمرو بن العاص ومعاوية ويترك القرآن الناطق المتحرك على الأرض وهو وصي رسول الله وصنوه ونفسه وباب حكمته أميرالمؤمنين علي عليه السلام فالإنسان إذا لم يشخص الهدف الأعلى

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٨٢.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢١.

للقرآن عن طريق أحكام القرآن وفهمه مع السنة والعقل الموضوعي السليم، لايمكن أن يشخص طريق الولاية العلوية ويثبت فيه لأن من عرف القرآن والإسلام بأنه مجموع مناسك ومظاهر وشعائر وظواهر نصوص فإنّه لا يفرق بين علي ومعاوية بل يمكن ان يخدع بمظاهر معاوية ويترك علياً كما حصل في صفين، ولأجل أن يشخص كل إنسان في كل عصر المنهج العلوي ويميزه عن المنهج الأموي فلابد له من فهم النصوص وتدبرها بعملية تفكير موضوعي تؤدي إلى الوعي ومعرفة الحق...

النظرة العليا للدين

وهذه هي القاعدة للتشخيص التي أسسها أميرالمؤمنين وبيّنها لجميع الأجيال كي يعرفوه فيتبعوه... فقد جاء رجل اسمه الحارث بن حوت فسأل الإمام عليه السلام: «أَتُرَانِي أَظُنُّ أَصْحَابَ اَلْجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلاَلَةٍ؟». فَقَالَ عليه السلام: «**يَا حَارِثُ إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَجُرْتَ إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ اَلْحُقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ وَلَمْ تَعْرِفِ اَلْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ**». فَقَالَ اَلْحَارِثُ: «فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعدِ بْنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ». فَقَالَ عليه السلام: «**إِنَّ سَعداً وَعَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا اَلْحَقَّ وَلَمْ يَخْذُلا الْبَاطِلَ**»(١).

يظهر ان مشكلة هذا الرجل وامثاله انهم لا ينظرون إلى دين الله نظرة عالية تريهم اهدافه ومعانيه الإنسانية السامية، انما ينظرون إلى تحتهم وأسفلهم وما حولهم من الأعراف والعادات ويزنون الأُمور بمقاساتها.

ومعرفة الحق تتم عبر النظر إلى الأعلى، أي إلى الأهداف والغايات والمقاصد العليا للدين، لا إلى المظاهر والشعائر والشعارات.

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٢٦٢.

مشكلة هؤلاء أوضحها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

هؤلاء ينظرون إلى الدين بنظرة الجاهلية التي لا ترى الدين إلّا مجموعة من الطقوس والرموز يؤدّيها الناس طلبا للرزق والبركة والاستشفاء وأمثال ذلك، وما رجال هذا الدين الا اشخاص رفعهم علو نسبهم وكرامة عنصرهم لخدمة الالهة، فمحمد ما هو الا رجل قرشي كريم جاء بدين جديد وحصل منه على ملك عظيم كما عبر عن ذلك ابو سفيان للعباس في فتح مكة قائلا له ان ملك ابن اخيك عظيم فقال له العباس ـ زاجراً إياه ـ : ويحك انها النبوة[1].

فإذا كان محمّد شخصاً ولم يكن نبياً ورسولاً وكان الإسلام طقوساً ومناسك فإنّ الإسلام يستمر بعد غياب شخص الرسول بشخصه لا بشخصيته أي بمواصفات العرف والموازين الاجتماعية كالنسب وكرامة العنصر والقومية لا بمواصفات النبوة والرسالة فلا فرق إذا بين اصحاب الجمل واصحاب علي، فالصلاة والعبادات والمصاحف والعمائم واللحى متساوية في ظاهرها في الجبهتين، ومحمد ليس هو محمد الرسول، انما هو محمد(العربي القرشي المكي) فاذا كان علي ابن عم محمد وصهره، فان الزبير وطلحه ابنا عمته وعمه ومعهما ام المؤمنين عائشة التي هي زوج الرسول وعرضه، فهي قد تكون بمثابة بيضة القبان التي يمكن ان ترجح كفة اصحاب الجمل على كفة علي في موازين القدسية التي ينظر بها هؤلاء إلى الدين عندما ينظرون اليه نظرة المنقلبين على الاعقاب كما سماهم القرآن، ان من ينظر إلى الرسول بانه محمد وانه شخص فإنّه

(١) الطبقات الكبرى ابن سعد ج٣ ص١٣٦.

لا يفرق في تشخيص امتداد الرسول بين علي وغيره بل قد يرجح غيره بمقاسات المصالح الاجتماعية والسياسية والعرفية.

ولكن القرآن اراد من الأُمّة ان تنظر إلى محمد انه رسول قد خلت من قبله الرسل أي انه خط رسالة، لا خط قبيلة، فعندما يرحل فإنما يرحل شخصه وتبقى رسالته ويبقى القرآن الذي جاء به من ربه يهتف بالأمة ان تحيي الرسول بأحياء الرسالة وذلك بتحقيق اهدافها على الارض، واهداف الرسالة هي اقامة الخلافة في الارض واظهار صفات الله بواسطة عبادة في بلاده، كالعلم والعدل والرحمة والعزة والحكمة والقدرة والجود... الخ.

فمن أراد أن يبقى على خط النبوة فعليه ان يبقى مع محمد الرسالة بكل مواصفاتها واهدافها، لا مع محمد الشخص والقبيلة وقريش وبني هاشم وما شابه ذلك، وهذا يعني ان من يخلف الرسول - الذي يقود الأُمّة لمواصلة خط النبوة كرسول ورسالة لا كشخص وقبيلة - يجب ان يحظى بأعلى درجات التحلي بهذه الصفات فيجب ان يحظى بأعلى درجات العلم والعدل وهذا ما يسمى بالعصمة، ويجب ان يكون نقيا من جميع انحاء التعلقات والتأثر بالهوى وحب الذات والميل عن المقاييس الالهية والإنسانية وان يكون مثالا للتضحية والعطاء.

فمثل هذا هو الذي يستطيع ان يحمل امانة الرسالة وان تستمر الرسالة على يديه، ومن عرف ان الرسول باق في الأُمّة رسالة وقرانا ينادي اتباعه إلى العمل والتطبيق وتحقيق الاهداف العليا للرسالة، فإنّه لا يمكن ان يبايع خليفة للرسول لا يحمل سوى مواصفات القبيلة والعرف والنسب، ولذلك يقول أميرالمؤمنين للحارث ابن حوط: انظر إلى الاعلى كي تعرف الحق الذي ارادته

السماء من الرسالة ومن اتاه ومن يمثله، وعندها سوف تعرف الباطل وهو الذي خالف اهداف السماء فتتركه.

فمعرفة الحق تتم بالنظرة العليا للدين وهي التي ترى للدين اهدافا تمتد في الافاق وتستمر مع عمود الزمان، لا انه اكوام من الطقوس والرموز أو شعائر تعيش على هوامش الحياة.

المنهج العلوي والكشف عن أهداف القرآن

إذا عرف الباحث عن الحق والحقيقة ان القرآن منهج ونظام لتحقيق الاهداف الإلهية في الارض وهنا لابد ان يبحث عن ادوات الكشف عن هذه الاهداف وتشخيص السبل والوسائل لتحقيقها في كل زمان ومكان، وهذا ما تكفل به المنهج العلوي.

ومع ان القرآن بنفسه يحتوي على الاصول والقواعد الكلية لنظام الحياة والوجود وبيان كل ما تحتاجه الحياة الإنسانية وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**تِبْيَاناً لكُلّ شَيءٍ**﴾ لكن القرآن نفسه يقول في عدد كبير من آياته يصل إلى المئات ان القرآن لايتبين مقصوده ولا يكشف عن حقيقته إلّا بالتدبر والتفكّر والتعقّل كما في قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (ص: ٢٩).

وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد: ٢٩).

كما ان القرآن أمر الرسول بأن يبين للناس ما نزل اليهم في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٤٤).

وأمر الناس أن يأخذوا بما يبين الرسول ويأمرهم به قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ**

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧).

فالقرآن وحده دون استعمال أدوات البيان والكشف والرجوع إلى الرسول ـ الذي يملك قوة الكشف العلمية وملكة الارادة والعزم في التطبيق العملي للمقاصد القرآنية ـ لا يمكن الرجوع اليه لمعرفة الاحكام والمواقف التفصيلية لإدارة الحياة .

أي انّ القرآن تبيان كل شيء، لكن بشرط عدم الفصل بينه وبين ادوات تطبيقه وبلورته على الواقع وهي التفكر والتعقل والتدبر تحت اشراف من لديه ملكة العصمة الذي هو الرسول ومن يمثله من بعده ويحمل ما لديه من مواصفات علمية وعملية .

وهذا ما أشار الي أميرالمؤمنين في قوله في بيان دور الرسول الاعظم وفضله: «**أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الامم وانتقاض من المبرم، فجاءهم بتصديق الذي بين يديه، والنور المقتدى به، ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق ولكن اخبركم عنه، الا ان فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم**»(١).

فهذا النص العلوي يؤكد ما يقوله القرآن من انه كتاب مبين وفيه تبيان كل شيء، ولكن هذا القرآن الذي يبين اهدافه بنحو جلي وواضح كالدعوة إلى اقامة الخلافة في الارض واقامة القسط وبسط العدل هو نفسه يقول ان من يريد تحقيق هذا الهدف لابد ان يرجع إلى الولي والقائد الذي يتصف بأعلى درجات العلم والعدل ومواصفات القيادة الالهية ومثل هذا الولي تجب طاعته والرجوع

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

إليه. وآيات القرآن حول هذا الامر واضحة جلية لا يرتاب فيها ولا يتردد في فهمها الا من اراد ان لا يفهم، وكل اختلاف في الأُمّة حول مقاصد القرآن لابد ان ينتهي إلى العلم لأنه كتاب مبين كما وصف نفسه، ومن يأبى تشخيص الولي والقائد وبالنتيجة يمتنع عن الطاعة والخضوع للأمر الالهي بطاعة هذا الولي ويسبب للامة النزاع والاختلاف، فان اختلافه بعد العلم، وسببه هو الطغيان والبغي بعد العلم لا عدم العلم والوضوح.

والقران أكد هذه الحقيقة في الكثير من آياته وقال ان هناك اختلافين احدهما محمود والاخر مذموم، الاول هو الاختلاف قبل العلم وهو خير ورحمة ويؤدي إلى كمال الأُمّة ونضجها ولا يسبب الانقسام، فمن الطبيعي ان اختلف معك في مسألة معينة والحل هو ان نتحاور عليها حوارا علمياً موضوعياً حتى نصل إلى الحقيقة أو الجواب المقنع أو نتفق على افضل حل ممكن، كما ان من الطبيعي ان تختلف الأُمّة في تشخيص القائد أو الولي أو المرجع فتحل هذه المشكلة بالرجوع إلى الادلة الشرعية أو العقلية والعقلائية كالرجوع إلى الوحي أو اثبات الاعلمية أو الاعدلية أو الانتخاب من قبل اكثرية الامة، وباتباع الطرق العلمية والعقلائية تصل الأُمّة إلى افضل حل ممكن ينهي سبب اختلافها ويوحدها، وما يحصل بعد ذلك من تشكيك واعتراض وتمرد فهو الاختلاف الثاني المذموم وهو الاختلاف بعد العلم وانكشاف الحقيقة وسببه العناد والبغي وحب الغلبة وعدم التسليم للحق والمصلحة العليا، وهو الذي يؤدي إلى انقسام الأُمّة وتفريقها إلى ملل ونحل واحزاب .

نهج البصيرة يبدأ بالعقل وينتهي بطاعة الولي

الدين شجرة التوحيد الطيبة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء تنبت نباتاً طيباً وتؤتي اكلها كل حين بإذن ربها وثمارها هي العدل والحضارة الإنسانية والمحبة والسلام والعزة والكرامة .

فاذا رأيت شجرة اسمها إسلام، ورأيتها لم تثمر الا أُكُلاً خمطاً خبيثاً نكِداً، فاعلم انها شجرة لم تنبت على أرضها، وأرض شجرة الإسلام هي العقل، فالإسلام ينبت على أرضية التفكر السليم فينتج الايمان القائم على الادلة القطعية والبراهين الواضحة وبهذا العقل البرهاني يكتشف الإنسان عظمة الخلق وعظمة الخالق وتوحيده وصفاته وبالنتيجة يكتشف عظمة الهدف فيهديه ايمانه بعظمة المرسل وهدفه إلى الايمان بالرسول والرسالة .

وحيث انه اكتشف الرسول والرسالة عن طريق اكتشاف الهدف وعظمة الهدف، لذلك فإنّه سوف يرتبط بالرسول والرسالة لأجل الهدف وسوف يتمسك بالرسول ومنهجه وخطه المرسوم لتحقيق الهدف .

وعليه فان قطار الايمان الحقيقي والنظام الديني لإدارة الحياة يجب ان

يتحرك على سكة العقل السليم الموضوعي الباحث عن الحقيقة ليبدأ من معرفة الخالق وتوحيده حتى يصل إلى الرسول والى الرسالة ومنها يتجه نحو محطة ولاية العلم والعدل فيأخذ نظام حياته من ولاية يتصف مصداقها والممثل لها بأعلى درجات العلم والعدل والمواصفات الإنسانية والحضارية.

فهذا هو الدين بأخصر عبارة: عقيدة توحيدية، مؤسسة على العقل السليم تتبلور في أرض الواقع في طاعة الامام العادل، ورسالة ذات اهداف إنسانية عالية لا تتحقق إلّا بطاعة من يشخص هذه الأهداف ويسعى بكلّ وجوده لتحقيقها ولا يريد من إمامته وقيادته وطاعة الناس له إلا تحقّق أهداف الرسالة.

ولذلك فإنّ مثل هذا الفهم الواعي للدين لا ينفك أبداً عن الارتباط بالإمام والقائد الذي يحقق الهدف وهو الولي العالم العادل.

تشخيص القطب السالب من الدائرة الدينية

تتكون الدائرة الدينية من قطبين، موجب وسالب هما: الكفر بالطاغوت الذي يمثل القطب السالب والايمان بالله الذي يمثل القطب الموجب ويعبر عنهما ايضاً بالتولي لأولياء الله والتبري من اعداء الله، ولأجل حصول التمسك بالعروة الوثقى وحركة جهاز الدين واناره مصباح الهداية لابد من الربط بين هذين القطبين وعدم التمسك بأحدهما دون الآخر.

فلا يكفي في معرفة الحق التعرّف على القطب الموجب للدائرة الدينية بل لابدّ من التعرف على القطب السالب منها أيضاً يقول عليه السلام: «**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا اَلرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا اَلَّذِي تَرَكَهُ وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا اَلَّذِي نَقَضَهُ وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ اَلْـجَهْلِ**»[1].

فالإنسان يجب ان لا يجمد على النصوص وظواهرها وأن ينظر إلى الأعلى ليتعرف على أهدافها ومقاصدها فيشخص الحق فإذا شخص الحق ينظر من

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٤٧.

الذي يعمل بالحق وهو الذي يحقق أهداف القرآن وينظر إلى من لا يعمل من أجل تحقيق أهداف القرآن فهو الباطل وإن قرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار.

وعليه ان يرتبط بالأول ويواليه ويتبرأ من الثاني ويتركه.

فانظر عندما تكون في جبهة علي ماذا ترى ؟

وماذا يعلمك علي في مدرسته؟ وعلى أي شيء يربيك؟

وعندما تكون في جبهة معاوية ومدرسته، ماذا ترى؟

وأي النزعات تنمو في داخلك؟

وكيف ستكون شخصيتك؟

إرم ببصرك الي هاتين الجبهتين والمدرستين فانظر أين ترى العدل والقسط؟ أين ترى الصدق والتمسك بالحق في الوسائل والاهداف؟

أين ترى التضحية والعطاء والايثار ؟

أين ترى المواساة والمساواة ؟ اين ترى الرحمة والرأفة بالضعفاء والفقراء؟

أين ترى العقل والعلم ومعالم الحضارة والإنسانية ؟

وهل ترى هذه الفضائل إلا في مدرسة علي ونهجه وهديه؟

وفي المقابل اين ترى الطبقية والتمييز والاستئثار؟

أين ترى الحرص والطمع والتكالب على الجاه والمال ؟

أين ترى الكذب و المكر والغدر والحيلة ؟

أين ترى القبلية والعنصرية؟

أوليست هذه هي مواصفات المنهج الأموي ومدرسته ؟

التطابق بين عقلي الظاهر والباطن:

فيا رواد الحق والحقيقة، ان خلاصة البصيرة تتجلى في ان تبعث نبيك الباطني إلى نفسك وذلك بان تحرك عقلك في الانفس والافاق ليكشف لك ما فيها من الآيات والبينات، لتعرف ان الله بكل شيء محيط وانه رب كل شيء وانه على كل شيء شهيد، فينفي عقلك جميع الاغيار من الوجود ويضع يده بيد العقل الظاهر وهو الرسول والقائد الالهي المبعوث من خالق الوجود لتحطيم اصنام الظاهر والارباب المصطنعة، فاذا تطابق النبيان والعقلان، الظاهر والباطن واتحدا والتحما وقام كل منهما بدوره بنفي الالهة والاغيار عن داخل النفس وتحطيم الاصنام والارباب في خارجها، سوف تسلك النفس في طريق البصيرة، وهو طريق الوصول إلى الله بالتحليق بمركبة الولاية في فضاء التوحيد والتنزيه والرفض الدائم لجميع مظاهر الشرك والصنمية في الحياة.

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (يوسف: ١٠٨).

وأخيرا..

جاء اليوم الاخير في حياة علي ليكتب آخر صفحة من كتاب منهج الحياة:

وإذا كان عليٌ قد حلَّ في صفحات أيام عمره المبارك اعقد الغاز الحياة وصاغ للإنسانية مفاتيح تحّول الدنيا بما فيهامن صراع وآلام وآفات وأسقام الى «**متجر أولياء الله ومسجد أحباء الله، دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها**»(١).

وشقّ علي في الدنيا طريقا يجعل أتباعه يقتحمون عقباتها ويواجهون كبدها ويشقون أمواج بلائها وقد «**استلانوا ماستوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان معلقة أرواحها بالملأ الاعلى**»(٢) ويعبرون أيامها و«**قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل**»(٣).

وفي يوم رحيل علي، يحلّ علي اعقد لغز قهر البشرية على مرّ الازمنة والدهور ... انّه الموت... ذلك الغول المخيف المرعب للبرية جمعاء...

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٣١ .

(٢) نهج البلاغة الحكمة ١٤٧ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

ولكن علياً بمنهجه حول ذلك الوحش الكاسر إلى طائر محبة وسلام وقَلَبَهُ من عدو لدود يسعى الإنسان بكل قدرته ان يجد له مهرباً منه إلى أليف حميم يبحث عنه لينعم بلقياه ومأوىً هانئاً ينتهي فيه التعب والنصب والضمأ والسغب ... انه يصف لنا استقباله للموت في آخر لحظات حياته ويقول:

«والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ولا طالع أنكرته، وما كنت إلّا كقاربٍ ورد، وطالبٍ وجد، هو عند الله خير للابرار»[1].

فيا أيتها الإنسانية هلمّي لتنهلي من نهج علي كي تحيلي الدنيا إلى بستان فضائل، ويتحول الموت عندك من كونه نهاية حياة إلى بوابة للحياة...

وبذلك نعرف أنّ نهج علي هو عين الحياة التي مَنْ نهل منها ألغى الموت من الوجود ...

(١) نهج البلاغة كتاب ٢٣ .

الفهرس

المقدمة ٧

الولاية صراط التوحيد ٩

بين الكعبة والمحراب ٩

المسؤولية الواعية قوام الحضارة ١٥

أول الدين معرفته ٢٣

ثورة العقول ٣٥

علم سبيل النجاة لا المصالح والرغبات ٤١

مكافيلي أَم علي؟ ٤٦

لواقح الكبر ٥٧

ما هي لواقح الكبر ٥٨

عمارة الأرض (التنمية الاقتصادية) ٦٩

تحويل الأموال إلى مشاريع انتاجية ٧٥

الأزمة الاقتصادية الغربية ٧٨

علاج آفة التسلط ٨٢
حكومة علي: عمارة البلاد وخدمة العباد..... ٨٦
زراعة المحبة ٨٩
رعاية المحبة ٩٨
نظم الأمر ١٠٧
اللذات العليا ١١٠
الديمقراطية المسؤولة ١١٣
١ ـ آلية تصدي الإمام العادل للحكومة،(النظم السياسي والإداري) ١١٩
٢ ـ النظم الاقتصادي ١٢٤
أ ـ ثقافة التكافل ١٢٤
ب ـ الضمان الاجتماعي..... ١٢٥
ج ـ تربية المجتمع المنتج ومحاربة الكسل والاتكالية ١٢٦
د ـ الدعوة إلى القناعة وتجنب الترف والبذخ..... ١٢٧
٣ ـ النظم الاجتماعي ١٢٩
أ ـ علاقة الرجل مع المرأة ١٣٠
ب ـ علاقة الوالد بالولد ١٤٤
ج ـ العلاقات الفئوية ١٤٦
٤ ـ النظم العبادي ١٥٠
أ ـ الاهتمام بوقت الصلاة والمحافظة عليها ١٥١
ب ـ مراعاة الأولويات..... ١٥٢

ج ـ تجنب الكثرة المملة ١٥٦
٥ ـ النظم الثقافي والعلمي ١٥٧
أ ـ البحث عن العلم النافع ١٥٩
ماهو العلم النافع؟ ١٥٩
المنهجية الهادفة مسؤولية المؤسسات العلمية ١٦٠
ب ـ الانتاج العلمي ١٦١
ج- اختيار الخطاب الديني المناسب ١٦٣
نهج البصيرة ١٧٠
تشخيص اهداف القرآن ١٧٨
النظرة العليا إلى الدين ١٨١
المنهج العلوي والكشف عن اهداف القران ١٨٥
نهج البصيرة يبدأ بالعقل وينتهي بطاعة الولي ١٨٨
تشخيص القطب السالب من الدائرة الدينية ١٩٠
التطابق بين عقلي الظاهر والباطن ١٩٢
وأخيراً ١٩٣
الفهرس ١٩٥

***